التربية والحضارة في بلاد الشرق القديم

دكتور سعيد اسماعيل علي

القاهرة ١٩٩٥

عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت / القاهرة

التربية والحضارة في بلاد الشرق القديم

دكتور سعيد إسماعيل علي
أستاذ أصول التربية
كلية التربية ـ جامعة عين شمس

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م

مقدمة

في العام الجامعي ١٩٩٢/٩١ ، كلفت لأول مرة ، بتدريس (تاريخ التربية) كمادة متخصصة لطلاب الدبلوم الخاص بتربية عين شمس .

وقد خطرت لي فكرة مؤداها أن هؤلاء الطلاب باعتبارهم طلاب (دراسات عليا) يمكن أن يقوموا ببناء عمل علمي كبير في تاريخ التربية وفقا لخطوات متدرجة بتوجيه مني وتحت اشرافي ، عبر سنوات ، اذا كان في العمر بقية .

ورأيت أن أحدد لكل عام (فترة تاريخية) تنقسم إلى مجالات أو محاور ، يكلف بكل منها عدد من الطلاب : قراءة ، ودراسة وبحثاً ، لأنتخب وأركّب من بين ما يكتبونه دراسة حول هذه الفترة ، تكون (فصلاً) ، ثم يتكرر هذا الأمر كل عام ، بالنسبة لفترات أخرى ، حتى تستغرق تاريخ التربية كله.

واخترت بالفعل أن تكون الخطوة الأولى ، هي : التربية في حضارات الشرق القديم ، وقسمت هذا الموضوع إلى جوانب : التربية البدائية / التربية عند البابليين والآشوريين / التربية في الهند / التربية في الصين التربية عند بني إسرائيل ، مع وعي ـ بطبيعة الحال ـ بأن هناك مناطق هامة أخرى . وفي مقدمتها : مصر / الجزيرة العربية / بلاد الفرس ، على أساس أن الأولى كتبت عنها في كتابي (تاريخ التربية والتعليم في مصر) وكذلك الثانية في كتابي (تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية) أما الثالثة ، فتحتاج إلى عمل مستقل ، ربما مع حضارة أخرى وهي حضارة الرومان.

وانطلق الطلاب يقرءون ويجمعون المادة العلمية ويدرسون ويكتبون

لكن النتيجة لم تكن مبشرة بخير ملحوظ . بالطبع كانت هناك بعض الجهود الطيبة ، لكنها كانت تعد على أصابع اليد الواحدة ، بينما كان العدد الكلى يتجاوز الثمانين بقليل !

ومن هنا فقد عزمت فى العام التالى أن أتحمل بنفسى مسئولية القيام بهذه الخطوة العلمية ، وبالفعل خصصت هذا العام لكتابة دراسة خاصة بهذه الفترة، ظهرت فى هذا الشكل المسمى (مذكرة).

وفى العام الثالث ١٩٩٤/٩٣ أتممت بحمد الله وفضله دراسة ثانية عن التربية فى الحضارة اليونانية.

فلما أصبحنا على أبواب العام ١٩٩٥/١٩٩٤ ، اتسعت آفاق المشروع أمام ناظرى ، واستقر فى ذهنى وفى نيتى أن يصدر على هيئة (كتيبات) يحمل كل منها فترة معينة ، أو منطقة بذاتها ، فى الوقت الذى ألمح فيه قطار العمر مسرعاً ، مقترباً من محطة النهاية ! حتى رأيت نفسى ـ ربما لأول مرة ـ متمنياً طول العمر لأتمم هذا المشروع .

وأعدت النظر فى الدراسة الأولى مزيداً فيها ما استجد من قراءات ، وبدأت فى اعدادها بالفعل فى الشكل الحالى .

ثم اذا بى أشعر بأن هذه السلسلة تحتاج إلى خطوة أسبق ، تتمثل فى مناقشة عدد من القضايا والمسائل الخاصة بعملية التأريخ بصفة عامة والتأريخ للتربية بصفة خاصة ، كانت ارهاصاتها تتمثل فى تلك الملاحظات المنهجية التى أثبتها فى الصفحات الأولى لكتابى تاريخ التربية والتعليم بالاشتراك مع د. سعد مرسى أحمد سنة ١٩٧٢ ، وأعدتها فى كتابى المنفرد (تاريخ التربية والتعليم فى مصر) سنة ١٩٨٥ .

لكنى لم أرد أن أؤجل اخراج العمل الحالى حتى تتم هذه الخطوة

السابقة ... وهكذا يجيء هذا العمل باعتباره (الكتاب الثانى) ، حيث أقوم حالياً باعداد دراسة تمثل الكتاب الأول ،عن المقدمات والأسس المنهجية للدراسات التاريخية فى التربية .

ولأن الدراسة الخاصة بالتربية والحضارة اليونانية جاهزة ، حيث انتهيت منها فى العام الماضى ، فسوف أشرع فى صياغتها بعد الانتهاء من العملين المشار إليهما .

هل سوف يمتد بى العمر حتى أكمل سلسلة التأريخ للتربية ؟ إنه السؤال الأبدى الذى لايعلم اجابته إلا الله وحده ، ومع ذلك ، فلابد أن نعمل وننجز ، طالما نحن على قيد الحياة.

نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا إلى مزيد من الجهد العلمى الذى يشكل لبنات فى بناء صرح الفكر التربوى .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

د . سعيد اسماعيل على

مصر الجديدة فى ١٩٩٤/١٠/١٩

فهرست

الفهرس صفحة شمال

الفصل الأول
التربية البدائية

ماذا نقصد بالتربية البدائية ؟

(البدء) هو أول كل شيء ، و (البدأة) هي أول الحال والنشأة ، و (البدائى) - بضم الباء - (فى علم الاجتماع) ، الطور الأول من أطوار النشوء.

ويشير المصطلح ، بوجه عام إلى الفجاجة ، وانعدام التطور، والخشونة ، وتدنى النوعية. (١)

(أ) وفى بعض السياقات يعنى المصطلح أيضاً عدم كفاية الوسائل بالنسبة للأهداف ، سواء منها الصريحة أو المفهومة ضمناً . ولهذا علاقة بالمجال التكنولوجى خاصة ، ولكن أيضاً بالظروف الموجودة داخل مجتمع ما ، وبالمفاضلة بين الثقافات ، فالعصا التى تستخدم للحفر - مثلا - بدائية ، بالمقارنة مع آلة مثل (التراكتور) والمضخة التى تشغل باليد (بدائية) بالمقارنة مع شبكة للمياة تستخدم الأنابيب والحنفيات ، والخيمة أو الكوخ (بدائيان) بالمقارنة مع (البيت)، والنار العادية ، أو الطباخ الذى يستخدم الخشب (بدائيان) بالنسبة لآلات الطبخ الغازية أو الكهربائية ، وهذه الأخيرة توصف بالبدائية يوماً عندما تقارن بآلات تستخدم الطاقة الشمسية أوالذرية ، وهكذا ، والطرق (البدائية) متعبة وبطيئة بالمقارنة مع تلك التى تتصف بالسرعة وبتوفير أقصى درجات الراحة للمسافرين .

(ب) ويستخدم المصطلح أحياناً ليؤدى معنى (البساطة) أو (عدم التمايز) أو للتعبير عن النقيض العام (للتعقيد) . وعلى العكس من ذلك قد يفيد معنى (التعقيد) ، أى ضد (البساطة) وللتعبير عما يتصف بالتمايز فيما يتعلق بصفات تقوم سلبياً ، واللغة هنا هى أوضح مثال

على ذلك ، ففقدان العلامات الإعرابية فى اللغة الإنجليزية ينظر إليه أحياناً باعتباره حركة باتجاه الوضوح (أى أن البساطة هنا تقوم إيجابياً ، وذلك فى تعامل الاحتفاظ بالعلامات الإعرابية فى لغة كالألمانية .

ج - قد تعنى الكلمة ، طبقا لاشتقاقها اللغوى ، نقطة فى الزمان (مبكرة) أو الأولى وأحياناً تستعمل للدلالة على ما هو (أصلى) أو (قديم) أو (من المنبع الصافى) ، أى أنها تتصل ببدائيات الأشياء بفجر المجتمع الإنسانى ، كما أنها تشير ، ضمن الإطار الفكرى الذى يؤمن بسير التطور الإنسانى فى خط مستقيم (وهو إطار مايزال واسع الانتشار) ، إلى مجتمعات سحيقة فى القدم لايمكن التعرف عليها إلا من خلال الحفريات الأثرية وكذلك إلى مجتمعات معاصرة يقال إنها تشبه القديمة فى عدد من الأمور المهمة كاستخدام الآلات الحجرية والاقتصاد القائم على الصيد والزراعة.(٢)

وعلى هذا فان التربية البدائية هي ذلك الطور الأول من التربية الذي شهدته الحياة البشرية فى أوائل سيرتها ، وقبل نشوء الحضارات القديمة وبالتالى ، فمن الناحية الزمنية فهى تشمل العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث ، ومرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية حيث بدأت الحضارات القديمة .

لكن « التربية البدائية » يمكن ألا يقف معناها عند الحدود الزمنية إذ قد تعبر عن (نمط من الحياة) قد نجده فى قرون حديثة ، كالقرنين الثامن عشر أو التاسع عشر - على سبيل المثال - ويسمى نوع التربية القائم (بدائيا) حيث تتمثل فيه اتجاهات وفلسفة وأساليب التربية التى كانت قائمة فيما قبل التاريخ ، وهو الأمر الذى شوهد بالفعل فى بعض المناطق التى انعزلت طويلا وقام بدراستها علماء التاريخ والآثار

والأنثروبولوجيا.

وهناك عدد غير قليل من العلماء في الوقت الحاضرلا يميلون إلى عبارات مثل (متوحش) و « بربري» و « غير متمدين» لوصف إنسان هذه الفترة الأولى من المسيرة البشرية ، كما يتجنب عدد من علماء الأجناس استخدام كلمة(بدائي) ليعبروا بها عن هذا الإنسان أيضاً ، ويكاد معظمهم يستخدم عبارة « إنسان ما قبل التاريخ » للتعبير عن الإنسان الذي عاش قبل اختراع الكتابة منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، ولعل من المهم ألا نعادل الإنسان ماقبل التاريخ(بالإنسان البدائي) الذي أشرنا إلى وجوده في العصر الحاضر في بعض جهات العالم لمجرد أن هذا الإنسان الأخير لا يعرف الكتابة .(٣)

ومع هذا فإننا لا نستطيع إغفال استخدام كلمة (بدائي) إغفالاً تاماً فقد استخدمها المؤرخون وعلماء العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مما جعلها مستمرة الظهور في كثير من الحلقات العلمية . يضاف إلى هذا أننا لانعرف كثيراًعن ثقافة إنسان ما قبل التاريخ ، إلا بما نستطيع أن نستدله من الدراسة المباشرة لثقافات البدائيين في الوقت الحاضر(٤) .

ولكن هناك بعض المزالق في استخدام اصطلاحات مشحونة بالأفكار الخاطئة، فالإنسان البدائي ، أي إنسان ما قبل التاريخ ، غالباً ما يتصوره الناس وحشاً غائر الجبهة ، صغير الدماغ ، ضخم الرقبة ، خائر الركبتين ، متصفاً بتلك العادة القبيحة ـ عادة جر النساء من شعورهن(٥)! والمحزن في الأمر أن هذه الأفكار انتشرت بين عامة الناس الأبرياء بفعل كبار العلماء في الماضي . ولاشك أنه كانت هناك جبهات غائرة ، ولكن لابد من القول أيضاً أنه كانت هناك خلف تلك الجبهات الغائرة أدمغة بالغة القوة ، وأن تلك الأدمغة في حالة إنسان

النياندارتال ، كانت أكبر حجماً من أدمغتنا نحن ! أما الوحش ، وصاحب الرقبة الضخمة ، وذلك الذى يجر النساء من شعورهن ، فكلهم من صنع خيال الذين رغبوا أن يروا تلك الأمور على ماهى عليه ، لا على ماينبغى أن تكون عليه، أو على ما يعتبره مرغوباً فيه .

إن من نتائج الاعتقاد بأن الإنسان البدائى كان أقل تطوراً منا عدم القدرة على إدراك أن إنسان ما قبل التاريخ قبل خمسةعشر ألف سنة كان فى بعض نواحى حياته قادراً على انجاز أمور عجز الإنسان منذذلك الحين عن التفوق عليه فيها. ومن بين الأمثلة البارزة على ذلك فن ما قبل التاريخ ، خاصة من العصر الحجرى القديم الأعلى . فعندما اكتشف هذا الفن فى أوائل هذا القرن عزى أولاً إلى فنانين من العصور الحديثة زعم أنهم ، لسبب يصعب فهمه ، زحفوا داخل قبو طبيعى وزينوا سقفه على غرار ما يكل أنجلو فى كنيسة السستين . ولكن لم يعد بالامكان مقاومة الأدلة بعد أن تمت اكتشافات أخرى فى أعماق الكهوف المظلمة تحت ظروف تدل على بعد سحيق فى الزمن ، فاعترف لإنسان ما قبل التاريخ بكونه خالق تلك الأعمال الفنية المدهشة من الرسم والنحت والحفر . وكما قال السيرهربرت ريد : « إن أفضل رسومات كهوف التامير، ونيو (Niaux) ولاسكو تكشف عن مهارة لا تقل عن مهارة بيزانيلو أو بيكاسو » [٦] وكل من رأى الرسوم الأصلية ، بل حتى نسخاً مأخوذة عنها ، سيوافق على أن هذا القول غير مبالغ فيه ، فبالإضافة إلى المهارة الفنية التى اتصف بها الفنانون القدماء ، فإن أعمالهم تظهر قدراً من الحيوية وقوة التعبير قلّ نظيره فى أى عصر من العصور .

ولأن هذه التربية جزء من ماض سحيق ، بعيد فى القدم ، فقد

تبدو دراستها « ترفاً » و «مضيعة للوقت » للوهلة الأولى .

لكننا إذا استرجعنا معنى التربية البدائية ،وربطنا هذا المعنى بتلك الحقيقة التى ترجح أن الوعى ببدايات الظاهرة ، وأشكالها الأولى يتيح فهمالها أكثر وضوحاً ، لأدركنا قيمة دراسة التربية البدائية.

ولعلنا هنا نضرب مثالاً بما يفعله علماء الاجتماع ، فهم إذ يعكفون على دراسة أحوال المجتمعات البدائية ، يستطيعون ـ بقدر كبير من احتمالية النجاح ـ أن يفسروا التنظيمات والأفكار الاجتماعية المختلفة المعاصرة التى قد يؤدى تعقدها الحالى وتشابكها إلى تعقيد دراستها ، فتجىء دراسة الأشكال الأولى والبذور الأولية لتلقى الضوء على (البدايات) وكيف تطورت حتى أصبحت على ماهى عليه فى عصرنا الراهن.

الثقافة البدائية:

كان الصيد هو الصورة الأولى التى دارت فى داخلها أنشطة الإنسان القديم حيث كان أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً إلى القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد ، لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ،وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التى يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئنانا وأوثق اتصالاً واطراداً ، ونعنى بها حياة الرعى التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن (٧).

وليس متاحاً لنا أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة (الحبوب) بحيث يتحول جمعها إلى بذرها في الأرض، فهذه هي أسرار التاريخ التي يصعب علمها علم اليقين . والمرحلة التي تلت ذلك في تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استعملت فيها الفأس في الحرث .

ولئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام، وبدأت المدنيةبالزراعة فقد بدأت الصناعة (بالنار) التي لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أنه قد صنعت له سنة الله في كونه هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق ، أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان في ذلك إلا الذكاء الذي يقلدبه الطبيعة ويزيدها كمالاً ، ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار ، استخدمها فيما لا حصر له من الصور[٨] .

على أن الإنسان ، اذ هو لم يزل في مراحل الصيد والرعي والزراعة ما انفك مخترعاً ، فكان الإنسان البدائي يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية في وجهه من مسائل ، فقد كان الإنسان ، بادىء ذي بدء ، راضياً ـ في ظاهر الأمر ـ بما تقدمه له الطبيعة ـ كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف في سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ـ فيما نظن ـ أنه أخذ في تقليد آلات الحيوان وصناعته، فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة ، وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبني لنفسها سدوداً ، والطيور تهيىء الأعشاش والعرائس ، والشمبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ، فأخذمن فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان ، بل تفوقها.[٩]

وكان النبات أيضاً ، الذى يحيط بالإنسان البدائى ، مصدراً لكثير من الآلآت . وبينما كانت الزراعة تنشيء (المدنية) انشاء ،فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام (الملكية) ، انتهت إلى نظام (الرق) الذى لم يكن معروفاً فى الجماعات التى كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص.(١٠)

وإنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ، لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه كان قمينا أن يجعل منه فريسة للكواسر التى لم تزل تجوس فى مناكب الأرض ، فالعادة فى الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلىء جنباته ، بالأنياب والمخالب والجلود التى يستحيل ثقبها (١١). وأغلب الظن أنه قد كانت هذه هى حالة الإنسان أول أمره ، فأنقذ نفسه بالتماسك فى جماعة الصيد أولاً ، فالقبيلة ثانياً ، فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القربى كمبدأ للتنظيم الاجتماعي، فقدت القبيلة مكانتها التى كانت تجعل منها قوام المجتمع ، وحل محلها فى أسفل البناء الأسرة .

والشعوب البدائية وإن تباينت فى كثير من الأمور ، فإنها تتشابه فى نقطة أساسية مهمة ، هى نسبة الحياة إلى الجماد أثناء تفسيرهم للبيئة المحيطة بهم ، ذلك أن الرجل البدائى يعتقد أن وراء كل قوة مادية قوة أخرى غير مادية هى القوة الروحية أو (المثيل) الذى يسيطر على كل كائن مادى ، ويعلل وجوده ويفسر مقاومته لإرادة الإنسان ، ويجعل منه مفسراً لشعور لايختلف فى نوعه عن ذلك الشعور الذى يمتاز به الإنسان

. فعالم (الأشباه) هو عالم روحى شبيه بعالم الكائنات المادية . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير الظواهر العادية للحياة وللطبيعة . أما الأحداث غير العادية فيمكن تفسيرها على هذا المنوال ، ولكن يستدل منها على تدخل بعض الأرواح الطاهرة ، اذا كانت نتائج الأحداث طيبة ، وعلى تدخل الأرواح الخبيثة اذا ارتبطت بنتائج ضارة (١٢).

واعتقد الرجل البدائى ـ فى إيمان راسخ ـ أن رمز الشىء ، مثل رمز الروح ، فهو لا يمثل الروح ، بل يحتوى على كنهها ، فرمز الشىء هو الشىء ذاته ، فاذا حطم فرد تمثالاً لروح أو اله ، فهو بذلك قد حطم الاله نفسه . ويلاحظ أن رسوم الروح من المحرمات ، وكذلك التلفظ بها ، وإنما أعطى هذا الشرف العظيم لرجل الدين ، وفى لحظة مقدسة (١٣)

والبدائى كان يوزع نشاطه على العمل والعبادة ، وبواسطتهما معا ، يتوصل إلى إرضاء شهواته التى تقتصر فى البداءة على اثنتين : الجوع ـ والحب . ونعنى بالجوع هنا ، كل الرغبات الجسمانية التى لها علاقة بالشخص نفسه ، كالعطش والحاجة إلى الملبس والمأوى والراحة .... الخ ، ونقصدبالحب: كل ميوله التى لها ارتباط بالآخرين كحب الظهور وملاذ الأسرة ... الخ ، فالأولى هى منبع كل الاحساسات النفسية ، والثانية كل الميول الاجتماعية ، فبالعمل أشبع جوعه (الجوع كما عرفناه) هو وأسرته وبالعبادة وقاهم جميعا من أخطار تلك القوى التى يتخيلها فيما وراء الظواهر الطبيعية والتى يعجز بقوته عن دفعها.

فقواعد العمل لديهم ، كانت أساس الأخلاق ومبدأ السياسة.

واعتقاداتهم فى العبادة ، كانت مبدأ الدين أولا ، وبعد ذلك صارت أساساً للعلوم والفنون والفلسفة.

في العمل يستعمل الإنسان الأشياء ، وفي العبادة (روح) أو أسماء تلك الأشياء .

أما عن أفكار الإنسان قبل التاريخ ، فإننا لا نعرف الكثير عنها ، ولا عن معتقداته ولغاته وقيمه، غير أن الكشوف الأثرية توضح أنواع الأشياء والآلات التي ابتكرها أسلافنا ، كما توضح طرائقهم في استخدامها ، ومآربهم فيها ، وتوضح أيضاً أنهم استخدموا الاشارات والرموز للتعبير عن آرائهم ، فدراسة اللغات تبرز إلى الضوء كلمات قديمة هي أشبه بحفريات دالة على الأشياء أو الأفكار الأولى ، ثم إن علماء الأجناس البشرية أطلعونا على العادات والتقاليد للأقوام البدائيين الذين عاشوا معهم وتحت بصرهم (١٤).

ويلاحظ أن هذا المجتمع البدائي كان على قدر كبير من التخصص في حفظ الحياة البشرية لا لسبب إلا لأنها في غاية البساطة ، كما أنه حل مشكلة حياته ، وربما كان هذا هو السبب الأول في أن هذه المجتمعات ليست لها صفحة في سجل التاريخ ، ولا أثر للمناطق التي سكنوها في الأطلس التاريخي (١٥) وإن دل هذا على شيء ، فإنما على أن التاريخ يعني ـ غالباً ـ بتسجيل الأحداث والصراعات ، وقلما يلتفت إلى الحياة التي تمر هادئة بسيطة لا أثر لإشكالات أوتعقيدات .

وقد عرف البدائيون شيئا من الطب ، كالعلاج بالأعشاب والعقاقير ، وعرفوا طرقاً بسيطة لتجبير العظام ، كما أجروا عمليات جراحية في بعض الجماجم . وتأكد الأخصائيون من أنها جماجم لرجال أحياء ممن عاشوا قبل التاريخ ، ولم تجر على جماجم فارغة لأغراض دينية كما قد يظن البعض ، لأن الخرق الذي يثقب في جمجمة رجل حي يميل إلى الالتئام بذاته ، وفي الجماجم التي وصلتنا ، نستطيع أن نرى في

وضوح نمو عظمة جديدة [١٦].

والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفة الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهم جعلن من فن التوليد ـ أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق ـ أقدم المهن جميعاً فحسب ، بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح لهن ذلك علماً أوسع بالنبات ، ومكنهن ذلك من التقدم بفن الطب ، وميزته عن التجارة بالسحر التى كان يقم بها الكهنة، فمنذ أقدم العصور ، حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذكراتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ، ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا اذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة .[١٧]

أما الرياضيات ، فإن أصل لغة العدد هو التسجيل على هيئة خطوط كان يحفرها الإنسان القديم منذ عصر ما قبل التاريخ على السطوح الصلبة ، ثم تحولت إلى علامات مقروءة ترسم على السطوح اللينة (مثل الطين) .

وربما كانت بداية الفلك فى قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية ، وكلمة (مقياس) نفسها ـ فيما يظن ديورانت ـ (فى اللغة الانجليزية Mea sure وكلمة شهر (MONTH) بل ربما كانت كلمة إنسان (MAN) أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس كل هذه الكلمات ترتد ـ هكذا يقطع مؤرخنا ـ إلى أصل لغوى معناه القمر (MOON) ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعداد بزمن طويل.[١٨]

وهذا الرأى لا يتجاوز ـ فى رأينا ـ مرحلة (الظن) اذ لايكفى هذا الدليل الذى يسوقه من خلال بعض تشابه فى الكلمات المشار إليها ، والا فماذا عن المناطق الأخرى وخاصة وديان الأنهار حيث قامت

الحضارات الأولى وليس في لغاتها مثل هذا التشابه؟

ولم يكن الإنسان البدائي يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة، وإنما كان يكتفي بممارستها من الوجهة العملية، فلئن لم يكن في مقدوره أن يقيس مسار المقذوف في الفضاء، إلا أنه كان يستطيع أن يصوب سهامه نحو الهدف فلا يخطيء، ولئن لم يكن لديه رموز كيمائية، إلا أنه استطاع أن يميز بلمحة سريعة، أي النباتات (سام) وأيها طعام، بل كان يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً في شفاء أمراض البدن.(١٩)

العقلية البدائية

كشفت الدراسات التي قام بها كثير من علماء الانثروبولوجيا لقبائل أفريقيةوقبائل أخرى في بعض المناطق الآسيوية وفي أمريكا الجنوبية عن صورة يمكن الاعتماد عليها ـ بحذر شديد ـ في محاولة رسم صورة لما كان عليه نمط التفكير في تلك الفترة التي نحن بصددها، ذلك أن هذه القبائل إنما هي (جيوب) انعزلت عن ركب الحضارة ومثلت ما يمكن تشبيهه (بالحفريات) التي تمكن العلماء من الوقوف على بعض جوانب من ماض سحيق في القدم.

وتشير نتائج هذه الدراسات إلى أن العقل البدائي إذا رأى نفسه أمام شيء يهمه أو يقلقه أو يخيفه، فإنه لايسلك تجاهه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا، بل يسير على الفور في طريق مختلف عن طريقنا، وذلك لأن حسنا الدائم بوجود الضمان العقلي قد بلغ درجة من الاستقرار لاتجعلنا نتوهم إمكان اختلاله، فإذا فرضنا أن ظاهرة لانعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفى علينا في بادىء الأمر خفاء تاماً، فإن ذلك لايزلزل اقتناعنا بأن جهلنا بها أمر مؤقت وأن هذه

الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلاً وإن آجلاً . وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت فى الوسط الذى نحيا فيه موضوعاً للتأمل منذ البداية ، وإنها نظام وعلة كالعقل الذى يفكر فيها ويصول فى مضمارها . ويشير نشاطنا اليومى فى أتفه تفاصيله إلى ثقتنا التامة فى عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفاوت .(٢٠)

أما مسلك العقلية البدائية فمختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف لأن الطبيعة التى تعيش فى أحضانها تمثل أمامها فى مظهر مختلف تمام الاختلاف ، فجميع الأشياء والكائنات التى تتضمنها متشابكة مختلطة بأمور غيبية . ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها وهو الذى يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائى ويستوقفه ، فاذا استرعت اهتمامه إحدى الظواهر ولم يقتصر على ادراكها بطريقة سلبية خالية من رد الفعل ، اتجه ذهنه فوراً ، وبما يشبه أن يكون حركة عقليةعكسية إلى وجود قوة خفية مرئية ،وجعل تلك الظاهرة مظهراً من مظاهرها.

ولنختر مثلاً من عشرات الأمثلة التى يعرضها علينا الباحثون (٢١) ، تعمد الجماعات البدائية كلها إلى تفسير الموت بغير الأسباب الطبيعية ، فاذا رأى أحدهم شخصاً يموت ، بدا له هذا الحادث وكأنه يقع للمرة الأولى ، وأنه لم يشاهد مثله من قبل . وهنا قد يتساءل الإنسان المعاصر : هل من المعقول ألايعرف هؤلاء الناس أن كل حى مصيره إلى الموت إن عاجلاً وإن آجلاً؟ والواقع أن البدائى لا ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية قط ، فهو يعتقد أن الأسباب التى تؤدى بالضرورة إلى موت كل شخص بعد عيشه عدداً من السنين مثل ضعف الشيخوخة ، وبلى الأعضاء وتخاذلها عن أداء وظيفتها ليست مرتبطة بالموت ارتباطاً ضرورياً . أليس يرى أمامه شيوخاً خائرى القوة يستمرون على قيد الحياة ؟

ولذلك إذا حدث الموت أرجعه إلى فعل قوة غيبية ، هذا إلا أنه يعتقد أن ضعف الشيخوخة نفسه لايرجع إلى ما نسمية نحن بالأسباب الطبيعية ، بل أيضاً إلى فعل القوى الخفية كجميع الأمراض الأخرى ، والخلاصة أنه إذا كان البدائي لا يعير أسباب الموت الطبيعية أى التفات ، فذلك لأنه يعرف سببه مقدماً ، ومادام يعرف لماذا حدث ؟ فلايهمه بعد ذلك أن يعرف كيف حدث ؟ فنحن هنا أمام مبدأ سابق التقرير ليس للتجارب عليه أى سلطان.

ولا تعرف العقلية البدائية شيئا يسمى المصادفة ، كما أنها من جهة أخرى لاتبحث عن الشروط التى تعمل على وقوع إحدى الحوادث أو امتناعها . ويترتب على ذلك أن هذه العقلية تتلقى الأشياء المفاجئة أو غير المتوقعة أو التى تخالف المعتاد بالانفعال أكثر مما تتلقاها بالدهشة. وعلى ذلك فإن فكرة (المفاجيء) أو (غير المعتاد) مألوفة جداً للعقلية البدائية ، وإن لم يكن لها لديها نفس التحديد الذى لها فى ذهننا (٢٢) ، فهى عندها إحدى الأفكار العامة المشخصة على السواء .

وقد يكون الشيء المفاجيء كثير الوقوع نسبياً . ولما كانت العقلية البدائية منصرفة عن الأسباب الطبيعية ، فإنها تستعيض عنها ـ إذا جاز لنا هذا التعبير ـ بيقظتها التامة والتفاتها الدائم إلى الدلالة الغيبية التى يمكنها أن تستخرجها من كل ما يصدمها . ولذلك كثيراً ما لاحظ الباحثون أن البدائى الذى لايدهش لشيء فى الحقيقة يعد فى نفس الوقت سريع القبول للانفعال ، فانعدام حب الاستطلاع العقلى ، مصحوب عنده بحساسية مرهفة نحو ظهور أى شيء يباغته .(٢٣)

ولعلنا بذلك نصبح أقدر على فهم السبب الذى من أجله تهمل العقلية البدائية البحث عما نسميه بأسباب الظواهر فعدم حب الاطلاع

هذا لايرجع إلى شلل عقلى ، ولا إلى ضعف فى القوى العقلية ، بل إن ذلك فى الحقيقة لايعتبر عدماً إذ أن العدم ، على حد تعبير الفلسفة المدرسية ، يخلو من علة عجزية أوسلبية. أما علة ما لدينا فذات حقيقة ايجابية ، فهو نتيجة مباشرة وضرورية لهذه الحقيقة الواقعة : وهى أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويعملون فى عالم لا يتفق مع عالمنا فى عدد كبير من الوجوه ، ولذلك نرى أن كثيراً من الأسئلة التى تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة إليهم ، لأن لديهم لها جواباً مجهزاً من قبل أو بالأحرى لأن نظام تصوراتهم من شأنه ألا يجعل لهذه الأسئلة أية أهمية فى نظرهم.(٢٤)

وبعبارات أخرى ، تتوقف حياة البدائيين العقلية (وبالتالى أحداسهم) على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية ،وهى أن العالم المحسوس ، والعالم الآخر لا يكونان فى تصوراتهم إلا شيئا واحداً ، ومجموعة الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم بأقل وجوداً ونشاطاً من الكائنات المرئية ، بل إنها أكثر منها تأثيراً أو إرهاباً ، ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدرجات الموضوعية ، ولو إلى حد يسير . وماجدوى ذلك إذا كانت الحياة والنجاح والصحة ، ونظام الطبيعة وكل شىء آخر يتوقف فى كل لحظة على القوى الخفية؟ وإذا كان فى وسع الجهد الإنسانى أن يفعل شيئا ، ألا ينبغى له أن ينفقه أولا وقبل كل شىء فى تفسيره لمظاهر هذه القوى وتنظيمها ، بل فى استثارتها أيضاً ؟ الواقع أن هذه هى الطريقة التى حاولت بها العقلية البدائية أن تنمى تجاربها.(٢٥)

ويمكننا على وجه الإجمال ، أن نقسم التأثيرات غير المرئية التى تشغل العقلية البدائية بصورة دائمة إلى ثلاثة أقسام ، وإن كانت كثيراً ما تتداخل بعضها فى بعض . وهذه الأقسام هى أرواح الموتى . والأرواح بأعم معانى الكلمة ، أى تلك المؤثرات التى تجعل الحياة تدب فى الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات خامدة (الأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ، الخ) ، وأخيراً الطلاسم والتعاويذ التى تعد من فعل السحر. (٢٦)

ونعتقد أننا أصبحنا الآن على بينة من السبب الأساس الذى يجعل العقلية البدائية لاتبالى بالبحث عن العلل الثانية (الطبيعية) ، ذلك لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب ، فالأسباب الطبيعية تكوّن عقداً أو مركبات تنبسط فى الزمان والمكان ، أما الأسباب الغيبية التى تتجه نحوها العقلية البدائية دائماً تقريباً ، فإنها غير مكانية ، بل غير زمانية أيضاً فى بعض الأحيان، ولذلك نراها تستبعد مجرد التفكير فى هذه العقد والمركبات، ولا يمكن لأثر هذه الأسباب الغيبية أن يكون إلا مباشراً ومؤذياً ،وحتى حينما ينتج هذا الأثر على بعد (كما فى حالات السحر) ، وحين لا تظهر نتيجته إلا بعد فترة ما ، فإن ذلك لايمنع البدائيين من أن يتصوروا ، أو بتعبير أدق ، من أن يشعروا بأنه قد ينتج دون وسيط .(٢٧)

الوضع التربوى

وإذا كان قد تبين لنا أن حياة الإنسان البدائى قد دارت حول مطلبى الحياتين (العملية) و (الروحية) ، فقد أدى هذا إلى تشكيل العمل التربوى ليدور حول محورين .(٢٨)

أولاً ــ الإعداد الضرورى اللازم للحصول على ضرورات الحياة

العملية ولايتضمن هذا الإعداد مجرد معرفة الطريقة التى بها يتحقق الغرض المعين ، كالصيد والقنص واستخدام الآلات وإعداد الجلود والبحث عن المأوى ، ولكن لابد مع ذلك من معرفة كيف يمكن القيام بمثل هذه الأشياء بالطرق المخصوصة المتداولة بين أفراد الأسرة والعشيرة ، كما وضعها كاهنهم أو ساحرهم أو طبيبهم بحيث يتجنب إغضاب الأشباه التى لها السيطرة على هذه الأشياء المادية ، وبذلك يمكن تحقيق الرغبات المطلوبة.

ثانياً ـ تدريب الفرد على الطرق المقبولة ، أو على ضروب العبادة التى بواسطتها لابد لكل فرد من أفراد الجماعة أن يبذل قصارى جهده لترضية عالم الأرواح أو إثارة إرادته الطيبة . وكل عملية من هذه العمليات تتطلب اتباع طريقة خاصة مناسبة لكل عمل ، عادياً كان ذلك العمل أو غير عادى وسواء أكان ذلك متصلاً بحياة الفرد أو بحياة الجماعة.

والناحية الأولى هى عماد التربية العملية ، والشطر الثانى هو عماد التربية النظرية لدى الإنسان البدائى .

وعلى هذا يمكن القول بأن غرض التربية البدائية هو إحداث توافق وانسجام بين الفرد وبيئته المادية والروحية ، وذلك بوسائل ثابتة وطرائق معينة فى القيام بالأعمال سواء أكان فى حالة العمل المصلحى أو فى حالة العبادة . وقد فرض على الإنسان البدائى اتباع الطرق نفسها التى يتبعها المجتمع ، وكل من الفرد والجماعة ، لايشعر بالفرد شعوراً واضحاً، ولايدرك أحد أن حقوقه ورفاهيته منفصلة تماماً عن حقوق المجتمع ورفاهيته . ومن أجل ذلك كانت تربية الإنسان البدائى مفروضة عليه بأدق تفاصيلها.(٢٩)

ويتم التعليم والتعلم فى المجتمع البدائى بصورة سهلة بسيطة ، لأن أدوات التعليم ووسائله فى متناول الفرد ، ويكون تعلمه من خلال الممارسة والتدريب عليها ، سواء كانت هذه الأدوات أو الوسائل رمحاً أو محراثاً أو قناعاً للأطفال . ويكون ما يتعلمه الطفل البدائى ذا مغزى اجتماعى ووظيفى فى حياته ، ومرتبطاً ارتباطاً مباشراً بواقع حياته .(٣٠)

فالطفل البدائى يتولى تعليمه أبواه فيعلمانه ـ إلى جانب قيم وتقاليد القبيلة ـ أى الطرق يسلك ، وأى الثمار يأكل وأيها يترك . وعندما يصحب الإبن والده للصيد ، يتعلم صيد الحيوانات وقتلها تعلماً فعلياً ، كما أن أخته في المنزل تتعلم رعاية الأسرة والمنزل بمشاركة أمها في أداء واجباتها المنزلية .

وقد يذهب إلى قريب له أو إلى خبير فى قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه من نشاط مطلوب ، كالقنص وصيد الأسماك ونصب الفخاخ وغيرها . وهو يتعلم هذه الأشياء لأنه يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلة ، ومن ثم يكون التعليم عن رغبة حقيقية لديه . وأنه يدرك أهمية ما يتعلمه ، ويدرك أيضاً ما يعنيه ذلك من أجل بقائه واستمرار حياته .(٣١)

وفيما قبل المدرسة ، لم يكن هناك هيئات اجتماعية محددة ومخصصة للإشراف على التربية فى المجتمعات البدائية ، وكانت الأسرة ، وهى الوسيط الاجتماعى الأساسى ، هى نفسها الوسيط التربوى الوحيد فى أولى مراحل التطور الإنسانى . وكان هذا يعنى أن الرقابة على العملية التربوية كانت فى يد الأسرة ، فكان عليها مسئولية تدريب الأطفال على العرف والتقاليد المقبولة من الجماعة

القبلية . وكان لبعض الأشخاص فى كثير من القبائل وظائف خاصة بهم . وقد كون أولئك الأشخاص ، وهم عادة كبار رجال القبائل ورجال الطب والسحر ورواة الأخبار، طبقة كهنوتية تشرف على تعليم الأطفال ، وهناك مايدل على أن نوعاً خاصاً من التدريب كان يخضع له كل من ينضم لطبقة الكهنة . وكان هذا التدريب يشمل عادة التعرف على بعض المهارات والمعارف الخاصة المتعلقة بالسحر والترانيم والطقوس والحفلات . وكان لبعض القبائل بالإضافة إلى ذلك ، جماعات تقوم بحرف ووظائف مختلفة كبناء البيوت ، وتشكيل الأشياء من المعادن ، وصناعة الآلات والملابس ، ووشم الناس . وكانت هذه الجماعات تدرب الصغار على التعرف على مهارات وأسرار هذه الحرف المختلفة .(٣٢)

وكثيراً ما كانت بعض القبائل تقيم طقوساً لتدشين المراهقين أو صغار الشباب قبل قبولهم فى مجتمع الكبار فيها . ورغم أن ممارسة طقوس التدشين لم تكن أمراً شائعاً بين كل القبائل إلا أنها كانت تمثل نوعاً هاماً من إشراف الكبار على تربية الصغار .(٣٣)

وكانت بيئة الإنسان البدائى ، ثابتة نسبياً . ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تتطلب الشجاعة وتكامل الشخصية ، فكان الوالد البدائي يركز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ، فقد كان يعنيه أن يبنى رجالاً ، لا أن يكون العلماء ، ومن هنا كانت طقوس ادماج الناس فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت فى الشعوب البدائية تعلن بلوغ الناس سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ، ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ، وكانت مهمتها أن

تعد الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ، وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا .(٣٤)

والتربية الفكرية لم يكن من شأنها أن تقدم لقدرات الناشىء إعداداً منهجياً عقلانياً ، غير أنها كانت تشحذ القدرات والمهارات الضرورية التى يستلزمها طراز الحياة لدى تلك الأقوام البدائية، فالآباء ، وقد عرفوا أن عليهم أن يصارعوا شتى الأخطار ، يدركون بالنظرة والغريزة بأن عليهم أن يتعهدوا حواس أطفالهم وأن ييسروا لها ما يشحذها ويزكيها . والحق أن أول ما يدهشنا لدى الأقوام البدائية ، ذلك الأرهاف الرائع فى الإدركات الحسية ، فالسمع عندهم مرهف ، والبصر حديد ، حتى أن بعض القبائل المتنقلة تستطيع أن تتوسم عمر أشخاص يمرون بها عابراً ، بل أن تتفرس جنسهم وقومهم وعددهم ، من مجرد ملاحظة مظهرهم وهيأتهم ، ومن المعروف أن علم الفراسة عند القبائل العربية طرف من هذه القدرة الهائلة على الحدس الحسى والنفسى . أما الشم عند هذه الأقوام البدائية، فقد ينافس حاسة الشم لدى كلابهم.

ومثل هذا يصدق على الذاكرة ، فراعى القطيع، وهو يرى قطعانه الكثيرة تمر أمام ناظريه ، كثيراً ما يستبين له نقصها أو تمامها بلمحة عين ، بل كثيراًما يصفُ الرؤوس الناقصة .(٣٥)

وكانت هناك أيضا التربية الجسمية حيث كانت أهم مشاكل الإنسان البدائى هى أن يحمى نفسه وأسرته من الأعداء سواء كانوا من البشر ، أو من الحيوانات ، فكان عليه أن يعنى بجسمه وبنيانه وقد مارس من أجل ذلك تدريبات بدنية مختلفة ، وكان من عاداتهم تشجيع الأطفال لكم آبائهم كى لايشبوا جبناء ، وعندما يكبر

الأطفال عليهم أن يتقبلوا بكل شجاعة اللكمات القوية التى يسددها إليهم الآباء.(٣٦)

أما عن التربية الدينية ، فكانت فى بداية الأمر فى يد الأسرة، ولكن عندما انضمت الأسرة لتكون قبائل ، وأصبحت عادات القبيلة جزءاً من ميراثها الاجتماعى ، صارت الضرورة إلى العبادة الجماعية بين أفراد القبيلة ، ولهذا كان لابد من وجود قائد للقبيلة ، ولقد اختير لقوته أو سنه ، أو منظره أو قدرته ، ومن المحتمل أنه كان يسمى رجل الطب أو الطبيب ، أو الساحر أو الكاهن . وكان من أهم اختصاصاته طرد الأرواح الشريرة ، وابتكار الرقصات وإعداد المراسم والطقوس والطلاسم ، وكل مايرتبط بالعبادة.

كان القائد أو مختار القبيلة ، زعيمها الدينى ، وكان عليه أن يعرف الأسباب التى من أجلها تقام الطقوس والمراسيم ، وشكلت هذه المعرفة المنابع الأولى للمعرفة التى ستنضم وتتنوع فيما بعد لتكون المناهج التى يدرسها التلاميذ والطلبة . ولكى تنقل هذه المعرفة من جيل لآخر ، نظمت فصول لتدريب الشباب من القبيلة الذين اختيروا لتولى الوظائف الكهنوتية فيما بعد . وكان لابد اذن لهذه الطائفة من رجال الدين أن تحجب الأسرار الدينية عن سواد الجماهير . وعندما ظهرت الكتابة ، ظلت هذه المعرفة أيضاً قاصرة على رجال الدين الذين زادوا عليها جيلاً بعد جيل ، فكان الكهنة هم المعلمين وحاملى المعرفة وتنظيمها وهم الذين ابتكروا اللغة والآداب. (٣٧)

***

وليس فى وسعنا أن نقدر ما أداه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديراً تاماً ، لأننا من جهة لاينبغى أن ننساق وراء الخيال فى تصوير

حياتهم بحيث تجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشك من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثاراً لو بقيت لضيقت مسافة الخلف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث [٣٨] ومع ذلك فما قد بقي لنا من أدلة خطوات التقدم التى خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفى وحده لتقديره : فحسبنا ما تم فى العصر الحجرى القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقدم الفنون ، وحسبنا ما ظهر فى العصر الحجرى الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعد منازعاً فيها ، والتوسع فى عمرانها بأبناء الجنس البشرى . وهكذا وضعت للمدنية كل أساسها : كل شيء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية ، إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ، فهيأ للإنسان سبلا لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنية.

ويمكن القول بلا مبالغة أن أوسع خطوة خطاها الإنسان فى انتقاله إلى المدنية هى الكتابة ، ففى قطع من الخزف ، هبطت إلينا من العصر الحجرى الثانى ، خطوط مرسومة بالألوان فسرها كثير من الباحثين على أنها رموز وقد يكون هذا موضعا للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبر عن أفكار ، وقد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو لين ، بغية زخرفتة أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفاً .[٣٩]

ويرى « فلندرز بترلى (Flinders petrlie) أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئا فشيئا فى العصور الأولى لأغراض شتى ،

فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى قطر .[٤٠]

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموز التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنبا إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل . وما جاء عام ٣٦٠٠ ق.م ـ وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل ـ حتى كانت (عيلام) و (سومر) و (مصر) قدد طورت مجموعة من الصور التى يعبرون بها عن أفكارهم وأطلقوا عليها اسم (الكتابة الهيروغليفية) ، لأن معظم من قام بها كان من الكهنة.

وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التى تمثل كل صورة منها فكرة كيف استحالت بخطأ الاستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفى ، إلى مقاطع ، أى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ، ثم كيف استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات ، وبهذا أصبحت حروفا ، وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد فى التاريخ إلى عام ٣٠٠٠ ق.م فى مصر .[٤١]

الظاهر إذن أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل التجارة المسهلة لأمورها ، فهاهنا أيضا نرى الثقافة كم هى مدينة للتجارة ، ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتا لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ، نستطيع أن نقول أن تطور الكتابة هو الذى كان ينشىء الحضارة انشاء ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة

ونقلتها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعا لدولة واحدة . إن بداية ظهور الكتابة ، هى الحد الذى يعين بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .[٤٢]

هوامش الفصل الأول

١ـ أشلى مانتاغيو (محرر) : البدائية ترجمة د. محمد عصفور ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٥٣) مايو ١٩٨٢ ، ص ٢٢.

٢ـ المرجع السابق . ص ٢٣

٣ـ وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص ٤٦ .

٤ـ Butts , R.Freeman , A Cultural History of Western Educa) (tion , New York , Megraw . Hil Book Company Inc , 1955, pp4-5.

٥ـ مونتاغيو : البدائية ص ١٥ .

٦ـ المرجع السابق ـ ١٦.

٧ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج١ ، م ١ ، ١٩٦٥ ، ص١٥.

٨ـ المرجع السابق ، ص ٢٢.

٩ـ المرجع السابق ، ص ٢٣.

١٠ـ المرجع السابق ، ص ٣٦.

١١ـ المرجع السابق ، ص ٥٥.

١٢ـ بول منرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، ج١ ، ص ص ٢، ٣ .

١٣ـ سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ،،القاهرة ، عالم

الكتب ، ١٩٧٧ ص ١٧.
١٤ـ جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلفالله وآخرين ، القاهرة دار المعارف،١٩٦١ ، ج١ ، ص ٤٢ .
١٥ـ ج.ل. مايرز : فجر التاريخ ، ترجمة على عزت الانصارى ،القاهرة ، مركز الشرق الأوسط ، ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .
١٦ـ سارتون : تاريخ العلم ، ص ٥١ .
١٧ـ ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١ ، م١ ، ص ١٣٧ .
١٨ـ المرجع السابق ، ١٣٦ .
١٩ـ المرجع السابق ، ص ١٣٧.
٢٠ـ ليفى بريل : العقلية البدائية ، ترجمة د. محمد القصاص ، مكتبة مصر ، د.ت ، ص ٢١.
٢١ـ المرجع السابق . ص ٢٤ .
٢٢ـ المرجع السابق ، ص ٤٨.
٢٣ـ المرجع السابق ، ص ٤٩.
٢٤ـ المرجع السابق ، ص ٥١.
٢٥ـ المرجع السابق ، ص ٥٣.
٢٦ـ المرجع السابق ، ص ٥٤.
٢٧ـ المرجع السابق ، ص ٩٠.
٢٨ـ مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ج١ ، ص ٤ .
٢٩ـ المرجع السابق ، ص ٥.
٣٠ـ محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٧ ، ص ١٩ .
٣١ـ المرجع السابق ، ص ٢٠.

٣٢ـ وهيب سمعان: الثقافة والتربية فى المجتمعات القديمة ، ص ٥٧ .
٣٣ـ المرجع السابق ، ص ٥٨.
٣٤ـ ديورانت ، قصة الحضارة ، ط١ ، ج ٢ ، ص ١٢٧.
٣٥ـ عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ .
٣٦ـ سعد مرسى : التربية والتقدم ، ص ١٨ .
٣٧ـ المرجع السابق ، ص ١٩.
٣٨ـ ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج ١، ص ١٧٦.
٣٩ـ المرجع السابق ، ص١٨١.
٤٠ـ المرجع السابق ، ص١٨٢.
٤١ـ المرجع السابق ، ص١٨٣.
٤٢ـ المرجع السابق ، ص١٨٤.

***

الفصل الثاني

التربية في العراق القديم

تاريخ بلاد النهرين القديم هو أقرب مايقرن بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمنى والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور فى مجالات الفكر والمادة معا . وكان فيما بقى من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الأشوريين والبابليين وعلاقتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ما سجله الرحالة والمؤرخون الأغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنها ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين ، بل والمغامرين فى بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم. (١)

وكانت بلاد ما بين النهرين مهد حضارات قديمة ، وكان إنسانها الأول متفرقا فى مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، وقد استطاع هذا الإنسان أن يحيا حياة قامت على أسس حضرية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ وهذه الأسس أخذت تتطور تطوراً رتيباً فى سلسلة متعددة الحلقات . ويجب علينا ألا نعتقدبأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتتبع التطور الحضرى بشكل تفصيلى بالنسبة إلى مجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكاناً واحداً ، وذلك لسبب بسيط وهو أن المخلفات البشرية التى تركوها لنا فى أمكنة معيشتهم غالباً ما اندثرت واختفت على مر السنيين ولأنهم أيضاً لم يكونوا قد وصلوا فى مدينتهم إلى الحد الذى استطاعوا معه استعمال

أدوات في حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع (٢).

وإذا نظرنا إلى الخريطة السياسية لجنوب غرب آسيا حوالى سنة ٢٠٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م نجد فى هذه المنطقة دولة عالمية ، هى امبراطورية سومر وأكاد التى أنشأها عام ٢٢٩٨ ق.م ، الملك السومرى (اورانجور) من (آور) وأحياهاحوالى عام ١٩٤٧ ق.م الملك حمورابى من (عيلام). (٣)

وكان البناة الأساسيون للحضارة والتاريخ فى أرض الرافدين شعبين ينتميان إلى أصلين مختلفين كل الاختلاف ، أبدعا ما تضمه تلك المنطقة من آثار فنية وأدبية كبيرة ، ونعنى بهما السومريين والأكديين . وقد عاش هذان الشعبان مختلطين بعضهما ببعض إلى حد كبير ، فكانت حضارة أرض الرافدين وتاريخهانتاج شعب مركب يستحيل فى كثير من الأحيان التمييز فى وضوح بين العنصرين اللذين يتألف منها .(٤)

والأكديون فى اصطلاح العلماء اسم جامع للبابليين والأشوريين.

ويؤكد أحد الباحثين العراقيين على أن أقدم الحضارات الرئيسية التى شهدها العراق فى جنوب الرافدين فى المرحلة الثالثة من مراحل تاريخ العراق قبل الميلاد ، وهى تتألف من أربعة فصول حضارية فرعية يتشابه قسم منها مع بعضها كما يختلف القسم الآخر عن بعض اختلافاكليا أطلق عليها بعض العلماء (عصور فجر التاريخ)أى ما يتوافق مع آخر عصور ماقبل التاريخ ، وتمتد هذه الحقبة الحضارية مابين ٦٠٠٠و ٣٠٠٠ ق.م . وهذه تعد من ضمن العصر الحجرى

المعدنى الذى حدد مابين سنة٥٦٠٠ و ٣٥٠٠ ق. م بصورة تقريبية . أما الفصول الحضارية فيمكن توزيعها كما يأتى :

١ـ حضارة العبيد واريدو من ٥٠٠٠ ـ ٣٨٠٠ ق.م .

٢ـ حضارة الوركاء من ٣٨٠٠ ـ ٣٢٠٠ ق .م

٣ـ حضارة جمدة نصر من ٣٢٠٠ ـ٣٠٠٠ ق. م

٤ـ حضارة عصر مسيلم السامى من٣٠٠٠ إلى نهاية عصور ما قبل التاريخ.(٥)

وقد دارت ولاتزال تدور حول هذه الحقبة الحضارية آراء مختلفة ونقاشات متضارية بحيث أصبحت تؤلف مشكلة عويصة أشبه بعملية رياضية يصعب حلها ، وهى لا تزال من القضايا المستعصية التى لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والأثرية ، وكان سبب حدوث هذه المشكلة أن أكثر الباحثين الأجانب كانوا، ولايزالون ينفردون بالبحث عن تاريخ العراق القديم وهم الذين ابتدعوا نظرية تاريخية لاتستند إلى واقع تاريخى فضلا عن أنها تجانب المنطق والعقل السليم. وهذه النظرية تجعل الحضارات التى ازدهرت فى جنوب العراق ماقبل التاريخ تعود كلها إلى السومريين (شعب غير سامى) فى حين أنهم يعلمون حق العلم بأن هذه الحضارات لايمكن إلا أن تكون سامية الأصل، وهى حضارة العراق الأساسية عندما أسسوا مستوطناتهم الزراعية فى جنوب العراق ، أما السومريون فقد ظهروا فى ما بعد التاريخ أى أنهم ظهروا فى عصر فجر السلالات ما بعد زمن الحضارات المذكورة بعشرات القرون.(٦)

ويشير الباحث العراقى إلى أن الغربيين قصدوا أبعاد السامية العربية عن دورها فى تأسيس حضارة وادى الرافدين بدليل أن الخبير الآثارى

(سيتون لويد) الذى كان يعمل خبيراً فى دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالاً عن «أريدو» نشر فى مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب من جرأة (كرامر) الخبير الآثارى فى موضوع (السومريات) أن يشير فى كتابه (الأساطير السومرية) الصادر سنة ١٩٤٤ إلى وجود الساميين عندما نزح السومريون إلى العراق والغريب أن تختفى هذه الإشارة فى الطبعات التالية !! (٧)

الحضارة السومرية :

قبل قيام السومريين ، وجدت فى المنطقة بين غرب إيران وجنوب العراق مدينة (السوس) القديمة ـ كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام ـ أى الأرض العالية ، فى هذا المكان أنشأ شعب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى إليه ، إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم. وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى ، آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق . م، وإن كان هناك من المؤرخين (مثل برستد) يعتقد أن هناك مبالغة فى قدم هذه الثقافة. (٨)

أما السومريون الذين ظهروا بعد ذلك فى جنوب العراق ، فقد كانوا جماعات لانعرف عنهم سوى أنهم ربما وفدوا من الشرق (٩) ، وقد عاشت هذه الجماعات فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، وهؤلاء المزارعون الأوائل هم ممن وضعوا بذور المدنية فى العراق ، إذ أن عديداً من المراكز المدنية الكبرى التى تظهر هناك فى أثناء الفترة التاريخية ترجع بأصولها إلى هؤلاء المستقرين الأوائل .

وقد بلغ السومريون مرتبة عالية من الحضارة ، فقد بدءوا شق القنوات واستغلال التربة بعقل وتدبير ، وإقامة المعابد والتماثيل .

وقد تركت الحضارة السومرية طابعها المباشر أيضاً فى آشور وسوريا ومصر ، ولكن لم يقابل هذا اتساع فى النفوذ السياسى ، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائماً من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة (١٠)

وقد عثر المنقبون فى بلاد سومر على أنواع شتى من الأحجار والمعادن ولم تكن البلاد نفسها تحويها ، فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التى تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ، ولم توفر كبيئة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى . فإذا استعمل السومريون أنواعاً شتى من الأحجار مثل الحجر الجيرى والألبستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والنحاس ، فمعنى هذا إن كل هذه الأحجار والمعادن ،كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعاً دل هذا أيضا على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق ، امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقاً ، وآسيا الصغرى شمالاً ، وسوريا غرباً ، ثم مصر جنوباً (١١) .

وفيما يتعلق بالكتابة مازلنا لانعرف على وجه اليقين هل أن السومريين بالذات هم الذين قاموا أولاً باستخدام الكتابة للتعبير عن الفكر ، مع أن هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعاً . أن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هى تلك الرقم الطينية الصغيرة التى نقشت عليها الكتابة التصويرية والتى تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد . وربما يكون السومريون قد بدأوا الكتابة قبل هذا التاريخ على

مواد أخرى ذات تركيبة عضوية ، وأن تكون هذه المواد قدتحللت وتلاشت للأبد . ومن المحتمل أيضاً ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة كوسيلة جديدة للتواصل ، أى أن يكونوا قد أخذوا هذا عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم فى الجزء الجنوبى من بلاد الرافدين (١٢) .

وكان السومريون يحتفظون بالرقم الطينية فى أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس ، وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق فى المدن السومرية الكبيرة كلاغاش وأوروك ونيبور الخ . وفى الواقع أننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ، ولا نعرف شيئاً عن تنظيمها وعملها ، ومع ذلك فإن الخبير الأمريكى بتاريخ وثقافة السومريين س . ن . كرامر قد سلط أخيراً ضوءاً ساطعاً على هذه القضية المثيرة . فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى محفوظ فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، ولاية بنسلفانيا ـ الولايات المتحدة ، ماهو إلا فهرس لإحدى المكتبات وفى الواقع أن هذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق.م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدينى والثقافى للسومريين حيث اكتشفت أيضاً الكثير من الرقم الطينية بالإضافة إلى ورشة للكتابة فى حالة جيدة ومدرسة أيضاً . وعلى الوجه الأمامى والخلفى لهذا الرقم الطينى نجد سجلاً لاثنين وستين كتاباً فى موضوعات مختلفة ، حتى أن الكتب الـ ١٢ الأخيرة تنتمى إلى مجموعة (الحكمة) (١٣)

ويرى أحد الباحثين العراقيين أن الخط المسمارى الذى نسب اختراعه إلى السومريين كان قد ظهر فى الألف الرابعة قبل الميلاد

لأول مرة (قبل أن يكون السومريون قد وجدوا بعد) ، على هيئة ألواح صورية (أى أن كل علامة مسمارية كانت تمثل صورة الشيىء المراد كتابته) أو الكلمة المطلوبة التعبير عنها. والثابت لدى العلماء أن أول وأقدم كتابةصورية معروفة وصلت إلى الآن ، وصلت إلينا من كيش السامية وليس من سومر ، ولم تكن هذه الكتابة على الطين كماكانت عليه الرقم السومرية التى اكتشفت فى الوركاء فيما بعد ، بل كانت منقوشة على الحجر ويرقى تاريخها إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق. م. (١٤)

وعلى هذا فإن الساميين هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى واستعملوه بنطاق واسع فى كل البلاد التى سيطروا عليها خاصةوقد ثبت لدى الباحث أن السامين تواجدوا فى المنطقة قبل السومريين ، ولو كان الخط المسمارى من نتاج السومريين وحدهم لكان الساميون قد أخذوا معه اللغة السومرية التى كانت تستعمل مع الأكدية السامية في كيش ، بل إن السومريين هم الذين استعاروا كلمات أكدية سامية وأدخلوها فى لغتهم السومرية ، وهذا ما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين فى الاستيطان فى وادى الرافدين، فاقتبس السومريون كلمات سامية استعاروها من الأكدية السامية. (١٥)

ويضيف (سوسة) إلى أن الرأى الذى أبداه بعض الباحثين من أن أصحاب حضارة العبيد هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى ينسجم مع الواقع التاريخى ومع المنطق وبدوره يؤيده ، ولما كانت الدلائل تؤيد بأن حضارة العبيد سامية بدليل وجودها في البلاد السامية المجاورة وهى سوريا وجزيرة العرب والخليج العربى والعراق فلا يمكن أن تكوون حضارة العبيد العراقية إلا من الساميين أيضاً بطبيعة الحال.

وبذا يكون الساميون هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى . ويجب ألا ننسى أن الساميين الكنعانيين هم الذين اكتشفوا فيما بعد الأبجدية فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . (١٦)

كذلك فلقد ثبت مؤخراً بعد اكتشاف لغة (يبلا) السامية فى (تل مرديخ) بسورية التى تعود إلى سنة ٣٠٠٠ ق . م أنهم قد استعملوا الخط المسمارى بلغتهم الأبيلوية ، مما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين فى اكتشاف الخط المسمارى واستعملوه فى كتابة لهجتهم الكنعانية القديمة قبل السومريين.

وأخيراً ، فقد كان العيلاميون يستعملون الخط المسمارى مثل السومريين ، ولا نعلم من استعمل الكتابة السومرية قبل الآخر.

على أية حال فالكتابة هى أهم ما قام به العقل (السومرى) ولقد اصطلحنا على تسميتها بالكتابة (الاسفينية) وذلك لأن الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لاتزال طرية مستعملا قلما يشبه (الاسفين) مثلثا ومنشورى الشكل ، يمسك به مائلاً وهو يضغط على سطح اللوحة بخفة ، وكان الركن يترك خطاً رفيعاً بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقاً واتساعاً وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار، وكانت تتكون فى أول الأمر من صور تعبر كل منها عما ترمز إليه ، ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة فى الاستعمال باختصار الخطوط التى تتكون منها الصورة (١٧) .

والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك « السهم » استعمل أولا للتدليل على أداة القتال ، ثم استعمل نطقها « تى » للتدليل على (الحياة) وهى كلمة تنطق فى لغتهم « تى» أيضاً، وللتفرقة بين المعنيين أردفوا

علامة السهم «تى» بمخصص هو قطعة من الخشب للتدليل على أن الكاتب يقصد (السهم) المصنوع من الخشب وليس (الحياة) ، وتمتاز الكتابة السومرية بأنها عرفت الحروف المتحركة وهذا مما يسهل على القارىء نطق الكلمات.

وليس من شك فى أن الكتابة السومرية تطورت من قرن إلى قرن ، بل إنها لم تكن متشابهة تماماً فى كل المدن فى عصر من العصور ، اذ أن كل مدرسة احتفظت بنوع من التقاليد فى تصوير العلامات.(١٨)

ومن مظاهر تطور الكتابة المسمارية ، أنها انتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيث توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) ، وكانت جهود السومريين الأوائل فى تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها . وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التى نافست شهرتها فى العالم القديم ، فى أربعة أمور وهى :سهولة التعبير نسبياً عن الحركات فى مقاطعها ، وتخليها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصيلة ، وكذلك فى عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لاسيما صفحات البردى وأنواع المداد . ولو أن هذه الاختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قروناً طويلة عند السومريين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى مايتصل به فى غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول ، وعندماقل استخدامها فى أواخر التاريخ العراقى وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئاً فشيئاً ، انطوت فى ظل النسيان ، وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة

تكشف النقاب عنها مرة ثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى . (١٩)

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحياناً ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها هيئة المربعات والمعينات الأخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الأحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه بعلامة مسمارية قائمة شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد . ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق ، كان متأثراً نوعاً ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى ، المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى .

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتبة لايزالون قلة أو يبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها ، وظل الناس يحسون بأهميتهم حين يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها ، وكان كتبة المحفوظات يحفظون لوحاتهم الهامة فى جرار وسلال يعنونونها ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون عليها طبيعةمحتوياتها.(٢٠)

ومن أهم ما احتفظت به الثقافة السومرية ،، قصة الطوفان ، وقد كان الناس يعتقدون حتى أخريات القرن الماضى أن التوراة هى أقدم مصدر لقصة الطوفان ، غير أن الاكتشافات الحديثة قد أثبتت أن ذلك مجرد وهم ، حيث عثر فى عام ١٨٥٣ على نسخةمن رواية الطوفان البابلية . وفى الفترة فيما بين عامى ١٨٨٩ ، ١٩٠٠

كشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر فى العراق ، عن اللوح الطينى الذى يحتوى على القصة السومرية للطوفان ، فى مدينة (نيبور) ـنفرـ ، وكان (أرنوبوبل) أول من قام بنشرها فى عام١٩١٤ ، ثم تبعه آخرون ، وإن كانت ترجمة (بوبل) هى الأساس الذى مايزال يعتمد عليه الباحثون. (٢١)

هذا ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها القصة السومرية أنها ترجع إلى عهد الملك البابلى الشهير (حمورابى) ـ ١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق. م وإن كان من المؤكد أن القصة منها إنما ترجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، ذلك لأنه فى هذا الوقت الذى كتب فيه اللوح لم يكن هناك وجود للسومريين ، بوصفهم عنصراً مستقلاً ، فقد كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى ، هذا فضلا عن أن لغتهم كانت من قبل قد أصبحت لغة ميتة ، على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا مايزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة عند القوم ، والمحفوظة فى ثنايا تلك الآداب ، ويعيدون كتابتها ، ومن ثم فإن الكشف عن رواية قصة الطوفان السومرية إنما يدعو إلى افتراض أنها إنما ترجع إلى زمن سبق احتلال السومريين لوادى الفرات ، وأن هؤلاء الساميين إنما قد أخذوا هذه القصة ، فيما يبدو ، عن السومريين ، بعد هجرتهم إلى وادى الفرات.

هذا وتتضمن قصة الطوفان السومرية عدة وقائع مهمة ، يتعلق أول ما يمكن قراءته من سطورها بخلق الإنسان والنبات والحيوان وبأصل الملكية السماوى ، فضلاً عن خمس مدن ترجع إلى ماقبل الطوفان ، ومن أسف أنه من بين اللوحات التى تتناول القصة لم تبق سوى لوحة واحدة ، وحتى هذه لم يبق منها سوى ثلثها الأخير ،

وقد فقدت مقدمة النص ونهايته ، ومن ثم فهو نص غامض فى أكثر نواحيه ، ومع ذلك فإن السطور الباقية تقدم لنا الخطوط الرئيسية [٢٢]

وكان أهل البلاد الأغنياء والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم ، ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم ، فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يحتفظ بالدين ويعترف بأن المرض لايمكن شفاؤه إلا إذ طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام [٢٣] وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثنى عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً فى كل ثلاثة أعوام أو أربعة ، حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس ، وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة. [٢٤]

و كان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس مايريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون فى نفوسهم مبادىء الوطنية والصلاح ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة . وقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جدول للضرائب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية [٢٥].

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب ، تطلب عدة مئات من السنين ، فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم

فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، قوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والايصالات ونحوها . ولعلها كانت ، بالاضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية ، والإجراءات المنيعة فى الاحتفالات ، والمراسم والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لاتبيد ولايدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد من دور الكتب قد أنشىء فى المدن السومرية (٢٦).

ويلخص (ديورانت) الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج وحليها التى أشرفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة واتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد ـ على قدر ماوصل إلى علمنا فى الوقت الحاضر ـ نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوىء الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة

والنعيم للأقويات ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس ، وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر (٢٧).

أكـــــد:

وإلى الشرق من مدينة بابل القديمة ، وسط العراق ، نجد مدينة «كيش» مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم ، وإلى جوارها نجد مدينة « أكد» التى تنسب إليها دولة « اللأكدبين » .

وفى أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كانت مدينة «كيش» مسرحاً لأحداث كبيرة ، إذ هاجمها شعب سامى قوى وصل إليها من المناطق التى تحدها شمالاً وأخذ يستقر فيها ويعمل على توسيع رقعة سلطانه ونجح فى ذلك نجاحاً مستفيضاً على يد أحد رجاله المدعو (سرجون) (٢٨).

ولقد وصلت إلينا من هذا العصر وثائق مختلفة، منها : ما يتعلق بحياة الناس اليومية ، ويتحدث عن تجارتهم وحسابات الأرباح والخسارة أو تسجيل عقود بيع وشراء العقارات ، ومنها ما كان يتحدث عن الملوك وأعمالهم المختلفة ، إلا أن منها ما كان يحمل طابعاً أدبياً مثل تلك الوثيقة التى كتبها أحد سكان مدينة (لجش) يستنزل فيها اللعنات على (لوجال زاجيرى) الذى خرب مدينته (٢٩)

من هذه الوثائق المختلفة نعرف أن الأكديين اتبعوا نفس الطريقة السومرية فى إقامة حساباتهم على أساس الوحدات العددية : خمس وعشرة وستين . وهذه الوحدات الحسابية بعينها هى التى بقيت لدينا حتى الآن فى حساب الساعة الزمنية التى نقسمها إلى ستين دقيقة

والدقيقة إلى ستين [٣٠].

وكانت السنة عندهم قمرية وتنقسم إلى اثنى عشر شهراً قمرياً ، ويبدأ الشهر بظهور الهلال وينتهي بظهور الهلال مرة أخرى ، ولقد عرفوا أن الشهر القمرى يجعل الفصول الأربعة تختلف فى حسابها وتوقيتها اختلافا واضحاً ، حالهم فى ذلك حالنا الآن فى حساب السنة الهجرية . ولقد دفعهم ذلك إلى إضافة شهر وأحياناً شهرين على السنة حتى تستقيم معها الفصول ... بل هناك وثيقة أرخت فى العام الثانى والخمسين من حكم الملك (شولجى).. ـ أحد ملوك الأسرة الثالثة لأور ـ ذكرت أن الناس زادوا ثلاثة أشهر إلى السنة حتى تنسجم الفصول مع مظاهر الطبيعة.

واعتاد الناس أن يؤرخوا أعوامهم بسنى أميرهم فى المدينة ، إلا أنهم اضطروا فيما بعد ، أى ابتداء من عصر حكم ملوك الأكديين ، أن يلجأوا إلى طريقة أخرى وهى تأريخ الأعوام بالأحداث المهمة التى تقع فيها.

وينسب إلى (لبت ـ عشتار) (Lipit - Ishtar) (١٩٣٤ ـ ١٩٢٤ ق . م) واحد من أهم التشريعات فى العراق القديم ، ويؤرخ بالعام الحادى والعشرين حكمه (حوالى سنة ١٩٢٤ ق . م) ، وبعد تشريع (شنونا) بنصف قرن ، وقبل تشريع (حمورابى) بقرن ونصف تقريباً ، ولم يبق من تشريع (لبت عشتار) سوى ثمانى وثلاثين مادة ، يحتمل أنها كانت تؤلف نحو نصف مواد التشريع ، فضلا عن مقدمته وخاتمته [٣١]

هذا وقد كتبت تشريعات لبت عشتار باللغة السومرية (وربما كانت هناك نسخة أخرى باللغة الأكدية)وقد حفظت لنا فى سبعة

ألواح ، عثر على ستة منها فى نيبور ، وهى محفوظة الآن بمتحف الجامعةفى لندن ، أما السابعة ومصدرها غير معروف ـ فمحفوظة الآن بمتحف اللوفر فى باريس ، ومن المؤكد أن هذه النسخ الطينية (الكسر) إنما هى نسخة من القانون الأصلى ، يدل على ذلك ،كثرة الأخطاء النحوية ، وسوء ترتيب المواد ، فلقد جرت العادة أن يستنسخ الطلبة القوانين أو بعض النصوص الدينية بغية تعليمهم وتدريبهم على الكتابة والقراءة ، ومن ثم المرجح أن هذه النصوص المكتشفة إنما هى من قبيل هذه النصوص التعليمية ، أما الأصل فقد دون على سلة أو نصب مميز ، لم يعثر عليه بعد، الأمر الذى تشير إليه الفقرة التى وردت فى مقدمة القانون ، والتى تقول ـ على لسان لبت ـ عشتار : « عندما وفرت الرفاهية لبلاد سومر وأكد ، أقمت هذه المسلة ».

هذا وقد اتخذ لبت ـ عشتار فى مقدمة قانونه لقب (ملك سومر وأكد) ، واعتبر نفسه ولدا للإله الأكبر(انليل) ووصف نفسه بأنه الراعى الحكيم ، ولكنه سرعان ماعقب على ذلك بقوله: أنه راع متواضع ، وأنه مزارع ، وأكد رعايته للمدن العتيقة نيبور وأريدو وأور وأوروك ، وافتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ، ليحق الحق فيها ، وليعمل على إسعاد السومريين والأكديين ، سواء بسواء ، وليقاوم الفساد والقلاقل بقوة السلاح ، ثم أكد أنه استوحى تشريعه من (أوتو) ـ رب الشمس ـ و(انليل) وأقر كلماتها المقدسة ، وأنه ابتغى أن يحرر أبناء سومر وأكد وبناتها من الرق الذى فرض عليهم.

وأما مواد القانون التى سلمت من التلف ، فإنها تعالج شئون الأراضى الزراعية وشئون السرقة فضلا عن شئون العبيد فى حالات هربهم ، أو ايواء الهاربين منهم أو عتقهم كما تناولت مواد أخرى

حالات الاعتداء على الآخرين ، وتنظيم شئون الضرائب . وقد اهتمت كثيراً بقانون الأحوال الشخصية وخاصة فيما يتعلق بشئون الأبناء (٣٢)

البابليون

حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م أثبت شعب سامى جديد وجوده فى فلسطين وسوريا ، وفى أرض الرافدين فى الوقت نفسه ، ونعنى بهذا الشعب (الأموريين) الذين أسسوا سلسلة من الدول ، وفى آخر الأمر ظفرت أحدى هذه الدول الأمورية بالصدارة ، وهى التى تسمى الدولة البابلية الأولى (حوالى ١٨٣٠ ـ ١٥٣٠ ق.م) (٣٣).

وتعتبر بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين ، فقد نشأ الجنس البابلى من تزاوج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى (٣٤).

وكان أبرز ملوك الدولة البابلية (حمورابى) الذى عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وقد لاحظنا أن النظام السياسى السائد فى بلاد مابين النهرين قبل عهد حمورابى يقوم على وجود عدد من الدويلات على رأس كل منها أمير ، ومنذ تولى حمورابى السلطة أخضعها جميعاً لنفوذه ووحدها تحت سلطانه، وأحل حكاماً للأقاليم محل الأمراء القدامى ، وكان من نتائج تركيز السلطة بين يديه أن توحد القانون فى البلاد التى يحكمها كما توحدت الديانة ، اذ ظهرت ديانة للدولة هى عبادة الالة (مزدك) إله بابل ، وبذلك اختفت آلهة الدويلات القديمة ، وقد دلت الآثار التى خلفتها المدنية

البابلية على أن تلك البلاد وصلت ـ فى عهد حمورابى ـ إلى درجة كبيرة من التقدم والحضارة (٣٥)

وكان الغرض الرئيسى من صدور ذلك القانون هو توحيد قوانين البلاد التى كان يحكمها الملك حمورابى، ونتيجة لذلك لم يقتصر قانون حمورابى على تجميع التقاليد العرفية التى كانت سائدة قبله ، بل قام بدور المصلح بجانب دوره كمشرع، وكذلك جمع فى قانونه بعض التقاليد العرفية التى رأى ضرورة تطبيقها على كل البلاد وما استتبعه ذلك التوحيد من تطور اجتماعى واقتصادى ، وجمع من جهة ثالثة بعض التقاليد العرفية التى كانت محل شك أو غموض أو اختلاف بين السكان.

واذا طرحنا جانباً الأحكام الجنائية التى تتميز بطابع القسوة فى بعض الأحيان ، فإن بقية أحكامه تفوق نظيرتها فى قانون الألواح الرومانى رغم أنه يسبقه بما يزيد عن اثنى عشر قرناً ، فهو يعترف بالملكية الفردية ، حرية التعاقد ، ويعترف للمرأة بأهية قانونية فى معظم الحالات .. وهو يحوى كثيراً من الأحكام التى تفوق فى عدالتها أحكام قانون الألواح ، ويؤكد صوفى أبو طالب أن روح العدالة كانت هى الطابع المميز لهذا القانون ، فهو يحمى الضعيف من القوى ، من ذلك ، الحكم الذى يقضى على رب العمل بمنح العامل أجازة ثلاثة أيام إذا كان عاملاً بالشهر ، ويمنحه عشرة أيام إذا كان عاملا بالسنة (٣٦) .

بيد أن مثل هذا النص اذا كان يعتبر عدلاً حقاً ، فإن هناك نصوصاً أخرى تفتقد الكثير من العدل ، وإن كان هذا القول لا نسوقه على سبيل « الإدانة » لهؤلاء الناس ، فهذا كان « اتجاه الريح

» للفكر القائم عموماً فيى مجتمعات هذا العهد .

ومن الأمثلة التى يمكن أن تذكر عن افتقاد العدل أن الإساءة إلى العامة كانت عقوبتها أقل قسوة إلى حد كبير من عقوبة الإساءة إلى الاشراف أو يعاقب عليها تبعا لمبدأ مختلف (٣٧).

« إذا أفسد الشريف عين شريف آخر ، فليفسدوا عينه.

وإذاكسر عظم شريف آخر فليكسروا عظمه.

وإذا أفسد عين رجل من العامةأو كسر عظمه ، فليدفع «منا» من الفضة.

وكان ينظر إلى العبد بالطبع نظرة أدنى من النظرة إلى الأحرار .

« إذا أعطى شريف المهر من أجل ابنة شريف آخر ، ولكن أخذها آخر عنوة دون استئذان أبيها وأمها وفض بكارتها ، كان ذلك جريمة يعاقب عليها بالموت ووجب موته ».

« إذا فض شريف بكارة أَمَة لشريف آخر ، فليدفع ثلثي «منا» من الفضة ، ولتبق الأَمَة ملكاً لسيدها »

وكان العبيد يعدون مجرد عقار منقول بملكه سادتهم ، والنفع الوحيد الذى كان ينطوى عليه مركزهم هو الحماية التى كان يكفلها لهم سادتهم لهذا السبب نفسه.

وفصلت التشريعات صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم فى المواريث ، فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فإن مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه . وكفلت نفس الأمر بالنسبة للابنة ومخصصاتها ، بحيث اذا مات أب دون أن يزوج ابنته ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها اخوتها مخصصاتها

المناسبة من ميراثه وقيدت حق الوالد في حرمان ولده بحكم القضاة في مدى عصيانه ، فإن أنكره أنذروه ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافقوا على حرمانه ، وإن تبينوا براءته حموه من أبيه. وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية في ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية . وجعلت للإبنة كاهنة كانت أم مدنية حق استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها ، على أن تبقى الرقبة لاخوتها ولايحق لها أن تتصرف فيها . وجعلت للأب أن يكتب لابنته في حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه ، فإن لم يفعل قام اخوتها بادارته والانفاق عليها من ريعه فإن قصروا في ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء ، ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه في سداد دين شخص ما ، وعلى أن تؤول الرقبة في أملاكها بعد وفاتها إلى اخوتها ، واستثنيت من عملت بالكهانة العليا في معبد مردوك رب بابل فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط ألا ترث حقوقاً اقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (٣٨).

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم ، فاذا مات زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد ، قاسمت مولى زوجها المقتنيات التي شاركت زوجها فيما بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها ،، وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتركوا لولده الشرعي البكر حق اختيار نصيبه بنفسه ، وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموا من ميراثه ، مع حرمان إخوتهم الشرعيين من

استرقاقهم.

ونظمت التشريعات أمور التبنى ، فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولدا له ويورثه ، فإن فعل واعترف به ولداً ، ثم تنكر له ربيبه وكان لقيطا وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رباه ، أو سحلت احدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الربيب اذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته (٣٩) ، ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولداً له . كما أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا لم يعلمه متبنيه الصانع حرفته ، واشترطت على من يتبنى طفلاً ، ثم يستغنى عنه بعد أن ينجب أولاداً من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين ، وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقولة .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم الموجهة إلى الآلهة التى تفيض بالتذلل الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبريائه ويخفيه عن الأنظار ، وأكثر هذه الترانيم فى صورة (أناشيد قومية) وهى تهيئنا لتلك المشاعر العاطفية والصور الرائعة التى نراها فى (مزامير) داود ، ومن يدرى ، لعل هذه كانت مثالاً احتذته تلك المزامير المتعددة النغمات(٤٠).

متى يا إلهى
متى يا إلهى يتجه وجهك الىّ
متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولاأعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟
لقد فسد الإنسان وساء حكمه ،

ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئاً؟
إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شرا ،
أي إلهى ، لا تنبذ خادمك
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده
والذنب الذى أذنبت ، بدله رحمة
واخلع عن ذنوبى الكثير كما يخلع المرء الثياب .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات تصدر عن إخلاص شديد ، ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات النفس ، بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه .

وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذى أقبل عليه من طوائف القوى السحرية (٤١).

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة آشور بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، رالتنبؤ بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب التنجيم ، ومنها ماهو قوائم فى الفأل السماوى منه والأرضي ، وإلى جانبها ارشادات شديدة تهدى إلى قراءتها ، ومنها بحوث فى تفسير الأحلام ، لاتقل براعة وبعدا عن المعقول عن بعض بحوث علم النفس الحديث ، ومنها إرشادات فى التنبؤ بالغيب ، ببحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها ، إذا أسقطت فى أبريق ماء (٤٢).

وقد أدت ملاحظة الأفلاك إلى تطور عظيم فى المعلومات الخاصة

بالفلك فى أرض الرافدين ، ولاسيما خلال العصر الكلدانى ، فلدينا عدة جداول من المعلومات الفلكيةتبرهن على معرفة بالظواهر السماوية واسعة الشمول وكان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مقامةعلى رؤوس أبراج المعابد ، وكانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية ، ويسجلون تسجيلا صحيحاً حركات الشمس والقمر ، فصارت لهم فى القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبوء بما ينتابها من خسوف أو كسوف . وأطلقوا على مجموعات الكواكب المختلفة أسماء أخذها عنهم اليونان فيما بعد ، فاليونان يدينون لبابل بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية ، وكان علم الفلك الأساس الذى بنى عليه التقويم ، وهو من اثنى عشر شهراً قمرياً(٤٣).

ويدل قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم وغير ذلك من الحسابات الفلكية ،وبعضها بالغ التعقيد ، على تقدم فى معرفة الرياضيات ، وكان أهل الرافدين يعرفون النظام الستينى والنظام العشرى ، وكانوا يستطيعون الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ومضاعفة الأس ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة ، وفى الهندسة كانوا يستطيعون قياس الأحجام والمساحات .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتى سومر وأكدّ ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية «الفصحى» والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التى عثر

عليها المنقبون في المكتبة الملكية بنينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتبا فى نحوها وصرفها . وتقول الروايات التاريخية أن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هو عهد سرجون ملك أكد (٤٤). والعلامات فى اللغة البابلية كالعلامات فى اللغة السومرية ، لا تدل على حروف وإنما تدل على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوالهم حروفا هجائية مستقلة ، بل ظلوا طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلاثمائة علامة من العلامات وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر فى مدارس الهياكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ماهو خليق بالدرس والمعرفة ، وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنية ونبات كتبت فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفى عام (٤٥).

وكانت أسطورة (جلجاميش) أبرز أساطير الأبطال ، فامتدت عبر حدود أرض الرافدين إلى أساطير الشعوب المجاورة (٤٦).

جلجاميش رجل يبحث عن الخلود ، وتتميز الملحمة بأن موقفها من الحياة ذاتى جديد نسبياً ، وهوفى أساسه شديد التشاؤم ، فالأبطال أنفسهم لايستطيعون الفرار من الموت و « طرق المجد لا تؤدى إلا إلى القبر » ، والقصة التى تقصدها القصيدة قد لا تكون أسطورية فى جميع تفاصيلها ، فهى تصور البطل ملكاً على مدينة (آرك) (Uruk) ، وكان هناك فعلا ملك عليها يسمى جلجاميش، فلعل مغامراته بعد أن ضخمتها الأساطير هى منشأ تلك الأسطورة.

كان جلجاميش هو الرجل الذى رأى كل شىء وعرف الأسرار

الخفية واكتشف سر الحكمة ، ولكنه كان يضطهد شعبه ، فأرادت الآلهة أن تقيم منافساً يناوئه ، ولم يكن بين الأحياء ند له ، فخلقت الآلهة من يضارعه وسمته (Enkidu) ولكن البطلين، بعد مغامرات مختلفة ، يصبحان صديقين ويقومان معا بأعمال فذة مروعة ، وبعد انتصارهما على المسخ المخيف الذى يسكن غابة الأرز ، تعجب الآلهة (عشتر) نفسها بجلجاميش ، وتعرض عليه الزواج منها ، ولكنه يرفض العرض ، ويعيرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة غير آبه لغضبها (٤٧).. إلى آخر الملحمة .

وتستحق هذه الملحمة أن تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى ، لا لأنها سبقت الملحمة الهومرية بألف وخمسمائة عام على الأقل فحسب ، بل من أجل نوع القصة التى ترويها وطبيعتها فهى مزاج من المغامرة الخالصة والأخلاقيات والمأساة ، ونحن من خلال الحدث نشهد اهتماماً بشرياً غاية فى البشرية بالفناء والبحث عن المعرفة وعن مهرب من القدر المشترك للإنسان ، وليس من الممكن أن تكون الآلهة مأساوية طالما أن الآلهة لا تموت ، ولئن لم يكن جلجاميش هو أول بطل من البشر ، فإنه أول بطل مأساوى نعلم عنه شيئا ، وهو على الفور أقرب الأبطال إلى نفوسنا ، كما أنه النموذج الأكثر تمثيلاً للإنسان الفرد فى سعيه إلى الحياة والفهم ، وهو سعى من شأن خاتمته أن تكون مأساة ، ولربما كان من المدهش أن شيئا ما قديماً كقدم قصة ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، تبقى له القدرة على أن يتحرك ويظل يجتذب القراء فى القرن العشرين بعد الميلاد ، لكن هكذا كان شأنه ، وبالرغم من أن السرد ناقص وأن من

الممكن أن يظل السرد على نقص ، فإن ملحمة جلجاميش اليوم هى أجمل الشعر الملحمى الذي تبقى من أى فترة حتى ظهور إلياذة هوميروس ، وإنها لأقدم من هذه بزمان (٤٨) .

ولدينا قرينة قوية على أن أكثر أشعار جلجاميش دونت فى القرون الأولى من الألف الثانية قبل الميلاد ، وعلى احتمال وجودها بعين الصورة إلى حد كبير منذ قرون كثيرة قبل ذلك ، فى حين أن التنقيح الأخير والنشرة الأكثر اكتمالاً ترجع إلى القرن السابع ق. م ، حيث قام عليها بعل (آشور بنيبال Assur banipal) آخر عاهل عظيم حكم الامبراطورية الآشورية ، وهو ملك ، كان مهتماً بالاثار القديمة . ولقد كان آشور بنى بعل هذا قائداً رهيباً ، وهو الذى اجتاح مصر وسوسة ، غير أنه جمع مكتبة ممتازة من السجلات التاريخية المعاصرة ، وكثيراً من الأناشيد والأشعار والنصوص العلمية والدينية العتيقة . وهو يحدثنا بأنه أرسل أتباعه ليفحصوا سجلات مراكز العلم القديمة فى بابل وأوروك ونيبور ، ولينسخوا ويترجموا إلى اللغة السامية الأكدية المعاصرة تلك النصوص التى كانت مكتوبة باللغة السومرية الأقدم بأرض النهرين . ومن هذه النصوص « التى دونت وفقا للأصل وجرت مقارنتها فى قصر آشور بنى بعل ملك العالم وملك آشور » ، كانت تلك القصيدة التى نسميها ملحمة جلجاميش (٤٩) .

ومن الأفكار التى يمكن وسمها « بالفلسفية » ما جاء فى أحد مقاطع الملحمة من نصح لجلجاميش بألا يشغل ذهنه بالحياة بعد الموت ، وأن يفعل عكس ذلك ، بالاهتمام بهذه الحياة الدنيا التى نحياها (٥٠) .

أى جلجاميش ، لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟

إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبدا .
إن الآلهـة حين خلقت بنى الإنسـان قـدرت الموت على بنى الإنسان.
واحتفظت بالحياة فى أيديها.
أى جلجاميش . املأ بطنك.
وكن مرحاً بالنهار والليل .
بالنهار وبالليل كن مبتهجاً راضياً
وطهر ثيابك
واغسل رأسك ، اغتسل بالماء .
والق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك .
واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك.

وقد نجح البابليون فى صنائعهم الضرورية والكمالية نجاحاً عظيماً فمبانيهم تشهد لهم باتساع مخيلاتهم ، وترعهم وجسورهم تبرهن على مهارتهم فى الهندسة ، وهذه كلها تستلزم تعليماً فنيا راقياً . أما تربيتهم الأخلاقية فكانت قاصرةعلى ما تعلمه الفرد من ديانته التى لم تهذب إلا من أخلاق الفئة القليلة التى اعتقدت وجود اله أكبر ، وميزت بين الحسنات والسيئات ، وبين جزاءكل منها فى الآخرة (٥١) .

ويذهب ديودوروس الصقلى إلى أن تربية أبناء كهنة البابليين بدأت منذ نعومة أظفارهم ، لأن العلوم التى تحتم عليهم دراستها ، شغلت زمناً طويلاً جداً واحتاجت إلى ملاحظات ورصد شخصى يستغرق سنين عديدة ، أما فن الطب فكان قاصراً على اختراع معادلات ورموز سحرية تخرج العفاريت من الأجسام كما أشرنا.

ولم تكن التربية العالية قاصرة على فئة الكهنة فقط ، بل عمت أيضاً طبقة الكاتبين ، لكن الكاتب البابلى لم يتمتع بالمنزلة الرفيعة التى تمتع بها أخوه فى مصر الفرعونية .

وكان الشطر الأكبر من أعمال الحكومة المركزية أو المحلية فى أيديهم ، فكنت تراهم فى المجتمعات الكبيرة وفى قصر الملك وفى المعابد والمحال التجارية والمساكن الخصوصية. ولم يختلف تعليمه كثيرا عن تعليم الكاتب المصرى ، فدرس نظام الأعمال الإدراية والقضائية وأنواع الرسائل سواء كانت للأشراف أو للعامة وفن الخط وحل الأعمال الحسابية بسرعة واستخراج صكوك البيع صحيحة ، وكانوا يكتبون على لوحات من الصلصال اللين بقلم يشبه المسمار ثم يرسلونها إلى صانع الفخار ليضعها فى الأتون كى تجف وتصير صلبة أو يضعونها فى أفرانهم الخصوصية ، وكثيراً ما كانوا يستبدلون اللوحات المذكورة باسطوانات مفرغة يكتبون عليها الحوادث الهامة ، ولقد وجد كثير من أحكامهم القضائية وعقودهم مكتوبة على اسطوانات من هذا القبيل (٥٢).

ولم يكن التعليم العالى قاصراً على الكهنة والكاتبين فقط ، بل تعداهما إلى أفراد الطبقة العالية ، وإننا لنجد عند مطالعتنا تاريخ الأمم الشرقية أن ملوكهم كثيراً ما كانوا يأخذون الشبان النبلاء ليتعلموا فى القصر الملكى كى يخدموا الأمة فى المستقبل ، ولقد استمرت هذه العادة عند الكلدانيين إلى ماقبل ميلاد المسيح بقرون قليلة(٥٣). ولدينا مثل تاريخى عظيم يثبت قولنا ، والمثل مأخوذ من(الكتاب المقدس) ، فلقد جاء فى الإصحاح الأول من باب النبى دانيال ، أنه عندما ذهب (نبوخذ ناصر) ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وامتلكها (٥٤):

«أمر الملك (اشفنز) رئيس خصيانه بأن يحضر من بنى اسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتياناً لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة ، وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم وعين لهم الملك وظيفة((طعام) كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنيين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك . وكان بينهم من بنى يهوذا دانيال وحنينا وميشائيل وعزريا ، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء ، فسمى دانيال : بلطشاصر ، وحنينا : شدرخ ، وميشائيل : ميشخ ، وعزريا عبدنغو» .

الآشوريون

يقسم المؤرخون تاريخ بلاد الأشوريين إلى حقبتين ، تمتاز الأولى وهى التى تمتد من حوالى سنة ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق . م بفترة نضال عنيف ، تكون فيها الآشوريون تكوينا سياسياً و عسكريا ، وهى فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التى سجلها التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية ، وتمتد من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦١٢ ق.م فهى تمثل طور النضج السياسى ، بعد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا امبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدراية التى اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الامبراطوريات التى ظهرت على أيدى رجال خرجوا من البيئة الجنوبية (٥٥) .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدن ترويها مياه نهر دجلة

وروافده ، وهى آشور وأربلا والكلخ ونينوى ، على الضفة المقابلة لمدينة الموصل شمال العراق (٥٦).

وكان الآشوريون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب ، وأخذ كل هؤلاء لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها (٥٧).

وقد استمرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون فى مهب الريح ، لاتعرف راحة ، ولم تذق طعم الطمأنينة ، فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لايستسلموا ، فخبروا القتال ، وجعلوا منه وسيلتهم للمحافظة على كيانهم ، ولعل آشور هى الأمة الأولى التى عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتها على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهروا فى التاريخ كأمة متماسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا فى نظامهم، وتماسكوا ، ولم يفشلوا فى تاريخهم السياسى بالسرعة التى رأيناها ، بالنسبة إلى الدول التى قامت فى الجنوب ، والتى عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته (٥٨).

وفى فترة من الفترات وجدنا حكومة آشور بانيبال تضم تحت جناحيها امبراطورية ضخمة تشمل بلاد : آشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقيا ، وسومر ، وعيلام ، ومصر (٥٩).

ولم تكن الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسر الآشورية بتلك

القوة التى ربطت بين أفراد الأسرة البابلية . ونحن نلاحظ أن قانون (حمورابى) قد حافظ بشكل واضح على الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الآشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة ، وصلت إلى حد أنه يستطيع بيع أطفاله وربما قتلهم أيضا (٦٠).

ولقد كانت حقوق المرأة عند الآشوريين ضيئلة ومنزلتها غير سامية ، ولم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتى ينتمين إلى الطبقة الحرة أن يخرجن إلى الطريق العام دون حجاب ، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى ، وكانت القوانين تهدف إلى إحاطة المرأة الحرة بكثير من الضمانات ، لكى تبقى عفيفة ، أمينة على عرضها ، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الإعدام لها ولعشيقها.

وكان آشور تشجع الإكثار من النسل ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول العسكرية.

وكانت (آشور) ـ بتشديد الشين أو تخفيفها ـ هو الإله القوى للآشوريين وكبير آلهتهم حتى نهاية امبراطوريتهم (وكانوا ينطقون اسمه أسور ، بسين مشددة)، وفى النسخة الآشورية من قصيدة (الخلق) نجده يحل محل الاله البابلى (مزدك) ، فقد أراد الآشوريون أن يكون لهم إلههم ، لا إله البابليين ، هو قاهر تهامة وخالق الكون . فكما حل مزدك لدى البابليين محل(أنليل)كبير آلهة السومريين ، حل الاله آشور لدى الأشوريين محل مزدك البابلى ، وهكذا كان الدين عونا للسياسة ، وصدى لمطامح المدن والشعوب والملوك (٦١).

ومن الطبيعى أن تنعكس نزعة الآشوريين الحربية فى فكرتهم عن الههم القومى ، فأعداء الملك والشعب ، هم أعداء الاله ، وبأمر الاله

يخرج ملوك آشور للحرب ، وبقدرته وعونه يكتب لهم النصر ، ومنه يستمد الملك الأسلحة التي تحقق النصر في المعركة ، وإليه يساق المغلوبون خاضعين ، لا القواد والجند فحسب ، بل آلهتهم المقهورة أيضاً ، إذ يؤتى بتماثيلها إلى معبده .

ونشهد في كثير من نواحي الحياة الآشورية صرامة أبوية نراها طبيعية في شعب يعيش في فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان ، وكانوا يجدون متعة ـ أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم ـ في تعذيب الأسرى وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء وشي أجسامهم في الأفران ، وربطهم بالسلاسل في الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم (٦٢).

وكان ذلك جوا لايزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الآشوري هو الطب البابلي لم يزيدوا عليه شيئا ، ولم يكن علم الفلك الآشوري إلا التنجيم البابلي ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم ، التنبؤ بالغيب . ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ، ولم نعثر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الآشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلهم وضعوها ليستعينوا بها في صناعة الطب ، وبذلك قدموا بعض العون لعلم النباتات ، ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوي على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعي من اليونان ، وأخذت اللغة الانجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية في الغالب ، بعض الألفاظ الانجليزية (٦٣).

ومن الألواح التي أثرت عن الآشوريين نجد بعضها قد اتخذ

صبغة عملية وعلمية ، فكان منها ما تحدث عن مركبات الزجاج وأطلية الخزف ، ووجدت منها جداول تتضمن بضع مئات من أسماء النباتات تداخل بعضها فى بعض وعبر بعضها عن خصائص نباته وثماره واستعماله ، مثل نبات القنب الذى أسموه نبات الغزل ونبات الهموم نظرا لمفعوله المخدر الذى ينسى الهموم (٦٤).

وتضمنت الألواح تفاصيل عقاقير نباتيةرتب كل منهاباسم النبات ونوع المرض الذى يعالجه ثم طريقة تعاطيه ، فكان منها مايقول : « العرقسوس لعلاج السعال ، يدق ويشرب مخمراً » ، «والصبر دواء للصفراء ، يدق ويشرب» وكان فى اطلاع بعض ملوك الآشوريين ، لاسيما الملكين آشور أخادين ، وآشور بانيبال على أشباه هذه العقاقير والوصفات ماجعلهم يبدون اهتماماً كبيراً بنشاط أطبائهم ويرسلونهم خصيصاً لعلاج أصدقائهم ثم يتلقون تقارير عنهم وعن علاج ذوى قرباهم بخاصة، وكثيراً ما اختتمت نصوص الألواح بتحذير القارىء من سرقتها أو كسر طابع مكتبتها الخاصة أو العامة ، وإلا تعرض لنقمة الآلهة.

وانتفع الكتبة الأشوريين بأساليب المعاجم القديمة فى بابل ، وزادوا مفرداتها ومترادفاتها الأجنبية نتيجة لاتساع صلات دولتهم بجيرانها ، وضمنوها مفردات خاتية وكاسية ومصرية ، وبعد أن كانوا يؤرخون نصوصهم فى عصرهم الآشورى الوسيط بأسماء الشهور : كيناته ، وسين ، وألاناتو ، وشاساراته ، ومايشبهها من أسماء غريبة ، أصبحوا يذكرون شهورهم فى عصرهم الحديث بأسماء : آبو ، وتشرين‌و ، وتمرز ، ونيسانو ، وأدارو ، وأولو ، وهى نفس الأسماء المعروفة للشهور الآرامية الباقية حتى الآن ، مع تغييرات لفظية طفيفة (٦٥).

ولعبت العرافة دوراً هاماً فى حياة الآشوريين ، وتقبلها ملوكهم بقبول حسن ، وتكفل بها كهنة وكاهنات كان من أنشطتهم كهنة المعبود آشور وكاهنات المعبودة إشتار أربلا ، ويبدو أنهم كانوا ينطقون بتنبؤاتهم وهم فى غيبوبة أو حالة انجذاب فتؤخذ على أنها صادرة من روح المعبود عن طريق وساطتهم ، ثم يدونها كتبتهم ويرسلونها إلى القصر إذا كانت تتعلق بشخص الملك ومشروعاته . ومن طريف ما تلقاه آشور أخادين من كاهنة إشتار أنها بعد أن وعدته النصر على أعدائه توقعت تردده فى تصديق نبوءتها ، فقالت له « ماذا فى قولى الذى تحدثت به إليك لا تستطيع أن تعتمد عليه ؟ » وقالت له كاهنة أخرى من إيلا تدعى « بعلة أبيشا » على لسان ربتها إشتار: «لم لم تصدق النبوءة السابقة التى تحدثت بها إليك ؟ صدق هذه وادعنى يوم اشتداد العاصفة ...» واشكرنى ..» وأفسحت حروب آشور بانيبال مع أخوته ، وفى أنحاء مملكته مجالا خصباً لتنبؤات العرافين وأمنيات المتزلقين (٦٦) .

ويمتاز الأدب الآشورى بأنه نحا نحواً جديداً فى ميدان المراسلات الكتابية، وتسجيل الأحداث ، ويتضمن أدب الرسائل المكاتبات التى كانت ترسل إلى مختلف أرجاء الامبراطورية ، ومنها يتبين بوضوح ، أن الحكومةالمركزية كانت تتلقى باستمرار تقارير مستفيضة عما كان يحدث فى كل منطقة من أحداث مختلفة ، لا تتعلق فقط بالحياة الإدراية أو العسكرية ، بل أيضاً بما يحدث من أشياء غريبة تدخل فى نطاق التنبوءات (٦٧) .

غير هذا ، فهناك خطابات يتحدث فيها أصحابها عن أشياء مختلفة ، منها ما يتعلق بالأمراض المختلفة وما يجب على الإنسان أن

يتناوله من عقاقير وكذلك رقى تطرد الأرواح الشريرة . كل هذه الخطابات ترد تباعاً إلى الملك تخبره عن كل صغيرة وكبيرة تحدث في الدولة ، ثم تحفظ فى المكتبة الملكية ولقد عثر على مكتبة (آشور بنبيال) وبها عشرات الآلاف من هذه الرسائل المكتوبة على اللوحات . الطينية ، بعضها باللغة الآشورية ، والبعض الآخر باللغة البابلية.

أما تسجيل الأحداث التاريخية ، فقد اختلف فى طريقة كتابته عن الوثيقة المماثلة فى عصر البابليين ، فملوك بابل حرصوا على تسجيل ما قاموا به من أعمال شتى لاقرار النظام ، والعمل على تشجيع العلوم والآداب وكذلك لدفع الأخطار عن حدود الدولة ، بينما ملوك آشور عملوا على الإشادة بأعمالهم الحربية فحسب ، ولم تكن النقوش المنتشرة فى قاعات القصر الملكى تحوى شيئا غير تمجيد أعمال صاحبه العسكرية.

العلاقة بين الحضارة المصرية والحضارة العراقية

ومنذ منتصف القرن الحالى وهناك من يتساءل : أيهما أقدم من الأخرى[٦٨] ؟. وقد اختلف علماء التاريخ القديم اختلافاكبيراً فيما بينهم عن الإجابة على هذا السؤال فى أبحاثهم التى ظهرت منذ ثلاثة أرباع قرن ، فمنهم من تعصب ، ومازال متعصبا لمصر ، ومنهم من تعصب ، ومازال متعصبا للعراق ، ولكن تعصب هذا العالم أوشك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئا ، فقد نشأت فى الألف الرابع قبل الميلاد فى كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها ، وأخذ كل منها يتقدم على انفراد. وتطورت الحياة الاجتماعية فى كل من البلدين تطورها الطبيعى ، وقد تمكن سكان العراق القدماء

من الوصـول فى بعض النواحى إلى درجـة من التقـدم جعلتـهم يسبقـون إخوانهـم فى وادى النيل ، فـوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر فى العصر الذي نسميه عصر ما قبل الأسرات (٦٩).

ومن الثابت أيضـا ـ وفقـا لأحداث النتائج التى وصلت إليـهـا أبحاث الأثريين ـ أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها البعض ، وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فاتصلت العراق ومصر ، وكانت مصر اذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع ، فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئا من مظاهر حضارية ، مثل الأختام الأسطوانية التى عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية كانت معروفة فى العراق فى العصر الذى يطلق عليه الأثريون عصر قبيل اختراع الكتابة (٧٠) .

ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التى يسهل نقلها كاحدى السلع التجارية، بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثراً . ومما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق ، أن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت فى العراق إلى آخر أبان بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى ، لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها ، فمصرت منه ما استساغته ونبذت ماعداه . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى فى ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار إلى القول باحتمال هجرة كبيرةمن العراق إلى مصر ، وزعم آخرون باحتمال غزو أو أن أصل الملك مينا من سومر وكلها مزاعم خيالية (٧١) .

هوامش الفصل الثاني

١ـ عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٩٠ . ص٤٣١ .

٢ـ عبد المنعم أبو بكر : العراق القديم تاريخه وحضاراته ، فى : ابراهيم رزقانة وآخرون ، حضارة مصر والشرق القديم ، القاهرة ،، نهضة مصر ، د.ت ، ص ٢٦٢ .

٣ـ أ . توينبى : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،١٩٦٦ ،ج١ ،ص٤٨ .

٤ـ سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة دار الكاتب العربى ، د.ت ، ٦٦ .

٥ـ أحمد سوسة : حضارة وادى الرافدين بين الساميين والسومريين ، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر،١٩٨٠ ،ص١٥ .

٦ـ المرجع السابق ص ١٨ .

٧ـ المرجع السابق ص ٢٠ .

٨ـ ول ديورانت: قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، م١ ،ج٢ ، ١٩٧١ ، ص١١

٩ـ محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى: الجغرافيا التاريخية .عصر ما قبل التاريخ وفجره ، القاهرة ، الانجلو المصرية،١٩٨٢ ، ص٣٩٩ .

١٠ـ الحضارات السامية القديمة ، ص ٦٧ .

١١ـ عبد المنعم أبو بكر ، العراق القديم ، ص ٢٨٠

١٢ـ ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة ، محمدم. الأرناؤوط . الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم

المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، ج١ ، ص ١٢ .
١٣ـ المرجع السابق ، ص ١٤ .
١٤ـ أحمد سوسة : حضارة وادى الرافدين ، ص ٤٢ .
١٥ـ المرجع السابق ، ص ٤٣ .
١٦ـ المرجع السابق ، ص ٤٤ .
١٧ـ عبد المنعم أبو بكر ، العراق القديم
١٨ـ المرجع السابق . ص ٢٨٤
١٩ـ عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، ج١ ، ص ٤٥٣ .
٢٠ـ المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .
٢١ـ محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ،١٩٩٠ ، ص ٥٩ .
٢٢ـ المرجع السابق . ص٦٠ .
٢٣ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥ .
٢٤ـ المرجع السابق ، ص ٢٦ .
٢٥ـ المرجع السابق ، ص ٣١ .
٢٦ـ المرجع السابق ، ص ٣٥ .
٢٧ـ المرجع السابق ، ص ٤٠ .
٢٨ـ المرجع السابق ، ص ٤١ .
٢٩ـ عبد المنعم أبو بكر ، ص ٢٨٥ .
٣٠ـ المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .
٣١ـ محمد بيومى مهران ، تاريخ العراق القديم ، ص ١٩٦ .
٣٢ـ المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
٣٣ـ الحضارات السامية القديمة ، ص ٦٨ .

٣٤ـ قصة الحضارة ، م١ ح٢ . ص ١٨٨ .
٣٥ـ صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٦ .
٣٦ـ المرجع السابق ، ص ١٥٩ .
٣٧ـ الحضارات السامية القديمة ، ص ٩٧ .
٣٨ـ عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم ، ج١ ، ص٥٣٣ .
٣٩ـ المرجع السابق ، ص ٥٣٤ .
٤٠ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٢٤ .
٤١ـ الحضارات السامية القديمة ، ص٢٦٦ .
٤٢ـ المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
٤٣ـ الحضارات السامية القديمة ، ص ٧٩ .
٤٤ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٢٧ .
٤٥ـ المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .
٤٦ـ الحضارات السامية القديمة . ص ٨٦ .
٤٧ـ المرجع السابق ، ص ٨٧ .
٤٨ـ ن .ك ساندرز : ملحمة جلجاميش : ترجمة محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضى. القاهرة ، دار المعارف ،١٩٧٠ ، ص ٩ .
٤٩ـ المرجع السابق . ص ١٠ .
٥٠ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥٨ .
٥١ـ أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، ج١ التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، ١٩٢٣ ، ص ٥٦ .
٥٢ـ المرجع السابق ، ص ٥٩ .
٥٣ـ المرجع السابق .

٥٤ـ الكتاب المقدس ، ص ٩٨٢ ، بيروت ، ١٩٠٦.
٥٥ـ عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٢١ .
٥٦ـ قصة الحضارة ، م١ ج٢ ، ص ٢٦٥.
٥٧ـ المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
٥٨ـ عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٢٠ .
٥٩ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٢٧.
٦٠ـ عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٤١.
٦١ـ الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٦٤.
٦٢ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٨١.
٦٣ـ المرجع السابق ، ص ٢٨٣.
٦٤ـ عبد العزيز صالح :الشرق الأدنى القديم ، ج١ ، ص٦٢٠.
٦٥ـ المرجع السابق ، ص ٦٢١.
٦٦ـ المرجع السابق ، ص ٦٢٢ .
٦٧ـ عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٤٥.
٦٨ـ أحمد فخرى : الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والآثرية الخاصة بالشرق القديم ، فى (المجلة التاريخية المصرية) ، م٣ ، ع٢ ، أكتوبر ١٩٥٠ ص ص ١ـ ٢٥ .
٦٩ـ أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٥ .
٧٠ـ المرجع السابق ، ص ٢٦ .
٧١ـ المرجع السابق ، ص ٢٧ .

***

الفصل الثالث

التربية الهندية

المعالم الرئيسية للتطور الحضارى

تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها ، وكثرة معارجها ومصاعبها ومهابطها وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعى فى أرضها وسمائها ، فبينما نرى فيها جبالاً شاهقة تتجاوز السحاب سموا ، وهضبات متفرقة يفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالها تتخللها من جهة كثبان ضخمة ، وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء ، صعبة الاجتياز ، إذا بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمة تتباهى بما تزدان به ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول ، وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى تفاجأ ببرده ورطوبته ، ولكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد فى بلاد الهند ، فتلك الحرارة التى أضعفت الأبدان وقصرت الشباب وأنتجت للناس هناك ديانتهم وفلسفتهم المسالمتين ، فليس يخفف عنك هذه الحرارة إلا أن تجلس ساكناً لاتعمل شيئا ، ولا ترغب فى شيء [1].

وكان لهذا التعدد والتباين فى كل شيء ، أثراً بارزاً فى عقلية الهنود .

وقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية فى أغوار الماضى مدى ثلاثين قرناً قبل المسيح ، إذ يحدثنا أن تلك الأودية كانت فى ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامى، لهم مدنيتهم وديانتهم

وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد أسهموا فى بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم فى تاريخ الفكر البشرى مجهود جبار ظل مجهولاً أو غامضاً على الأقل حتى تم الكشف عنه (٢).

فقد كانت الهند قبل الفتح الآرى قبائل متفرقة أو شعوباً صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه ، وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدى أولئك الفاتحين. احتل أولئك الآريون تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها ودياناتها طغياناً محاها من صحائف أذهان الخاصة ، وإن كان لم يستطع أن يمحوها من صحائف الوجود ، بل لا من أذهان العامة والجماهير ، وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى ، بعد مصر ، البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتى لا يفوقها في تعقد مشاكلها الدينية وكثرة آلهتها وصعوبة تحديد اختصاصاتهم وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات إلا مصر.(٣)

فمن هؤلاء الآريون الذين كانوا يضربون فى الأرض ؟ أما هم أنفسهم فلقد استعملوا كلمة (آرى) ليعنوا بها « الأشراف »(فى السنسكريتية ، آريا معناها شريف) ، ومن المرجح أن يكونوا قد جاءوا من تلك المنطقة القزوينية ، وكان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين ، جاءوا وهم على درجة من الوحشية لا تجعلهم يترددون في الهجوم ، وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالثقافة ، ولذلك أخضعوا الهند دون أن يدعوا أنهم يرفعون مستواها.

ولم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضا ، فقد كان شطر عظيم

منها تغطيه الغابات التى تسكنها وتذود عنها سباع ونمور وفِيَلة وثعابين وغيرها من الكائنات ، فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من هذه الأعداء ، ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ، تحولت إلى حقول يزرع فيها الأرز والقطانى والذرة والخضر والفاكهة.(٤)

وكما هى الحال فى كل أرجاء العالم ، كان فى الهند تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم فى الهند أو أمريكا ففى أسفل السلم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتلوهم صعوداً فئة (الشودرا) الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هى الحال فى سائر المنازل الاجتماعية بين الهنود (٥)

وقد ازداد النظام الطبقى تزمتاً وتعقيداً منذ العصر الفيدى (٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠) ق . م لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، لأن اجتياح الهند ـ من جهة أخرى ـ بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم الهنود بدم غيرهم ، فقدكان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد (٦).

وكان على رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، طبقة البراهمة ، وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد ماشاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا (٧).

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم فى مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان.

وقد ارتبط التشريع الخلقى فى هذه البلاد بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انفصام . والأخلاق عندهم هى (ذارما) ـ أى أنها قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته . ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسى الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجداً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مهد له لكى يسير فيه ولا يطوف بباله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى [٨].

وكانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوى الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد . وكانت المرأة مخلوقاً جميلاً يحب ، لكنها أحط منزلة من الرجل.

وكانت أخلاقهم فى التجارة رفيعة المستوى ، ولو أن الملوك فى الهند الفيدية ، كما كان أقرانهم فى اليونان الهومرية ، لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم ، ولكن المؤرخ اليونانى الذى أرخ لحملات الاسكندر ، يصف الهنود بأنهم « يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حداً يجعل التجاؤهم إلى القضاء نادراً ، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون

إلى أبعد الحدود » [٩]. نعم في سفر (رج ـ فيدا) ذكراً للزواج المحرم وللتضليل وللعهد وللإجهاض وللزنا ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسي الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال ، إلا أن الصورة العامة التى نستمدها من أسفار الفيدا ، ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة.

الفكر الفلسفى

والمفسرون للفلسفة الهندية هم فى العادة يهتمون بجذب الانتباه أولاً إلى عمقها ، وثانياً إلى قدمها ، أما بالنسبة لعمقها ، فليس فى ذلك أدنى شك، ولو لم تكن الهند قد أكدت سر الحياة ، فإنها من المؤكد قد صاغت إلى حد بعيد ، أكثر المسائل جدارة بالتقصي عن الموضوع ، أما متى على وجه التحديد مناقشة مثل هذه المسائل ، فهو موضوع يختلف فيه الخبراء ، وأقدم أدب دينى هندى معروف ، عبارة عن مجموعة من الأناشيد تشكل الـ « ريج ـ فيدا » «Rij Veda» ، وكل ما نستطيع قوله ، هو أن هذه الأناشيد كتبت ما بين سنتى ١٥٠٠و١٢٠٠ ق.م ، وهذا يضفى عليها قدما كافيا [١٠].

وليس الكتاب المقدس (الفيدا) كتاباً هندياً أصلياً ، وإنما هو كتاب (هندو آرى) ، حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى (البنجاب) المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً ، واذا فهو لا يمثل العقلية الهندية ، ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهدة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرنا ، بل بالعكس ، كثيراً ما يجد فيه القارىء صوراً عقلية واجتماعية هى على طرفى نقيض مع الصور التى كشفها الأثريون حديثاً للهند

المحلية الغابرة . وفوق ذلك ، فهو مكتوب باللغة السنسكريتية ، التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك ، والتى هى لغة الآريين وحدهم ، غير أن هذا الكتاب لايزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تارخ الديانة الهندية (١١).

ولكلمة (فيدا) عدة معان أدقها : العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول .

وينقسم الفيدا إلى أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى (ريج فيدا) وهى تحتوى على الأوراد ، والثانية تسمى (ساماان فيدا) وتحتوى عليى الأناشيد ،والثالثة (باحوس فيدا) وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين . والرابعة (أتارفافيدا) ، وتحتوى على التعاويذ السحرية. (١٢).

وكان المقصود بالفيدا أن تستظهر ، وكانت التلاوة من الذاكرة فى الأصل ، إجراء دينياً . ونحن نتحدث اليوم عن (الحفظ عن ظهر قلب) وليس عن ذهن أو عقل ، ولم يعلم أى طفل قط كيف يقرأ صلواته . وهذا الاستظهار كان بالغ الأهمية لدرجة أن الفيدا لابد أنها قد تنوقلت بالفم (ويتوقف الحفظ عن ظهر قلب على ممارسة شفوية) حتى أنها لم تسجل على الورق حتى مضى وقت طويل بعد أن صارت الكتابة واسعة الانتشار فى الهند . ولما كان هذا النسخ من المحتمل أن يكون قد حدث فى وقت متأخر يرجع إلى القرن التاسع ق . م ، فإنه يمكننا أن نحكم إلى أى مدى اعتمد الفكر الهندى القديم على ذاكرة شعبية . لقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاعتماد الطويل على الرواية الشفهية يجعل من العيب

الادعاء بأن الفيدا ، التى كان من المفروض أنها انتقلت إلى الإنسان من الإله ، قد بقيت بدون تعديل منذ عهد غرق فى القدم (١٣).

وفى الفيدا نجد أناشيد موجهة تقريباً إلى كل مظهر من مظاهر الطبيعة وبصورة خاصة إلى تلك الموضوعات التى يمكن أن يحس الإنسان بتأثيرها المباشر ، مثل الشمس والريح والماء والنار والضوء والقوة التسلطية التى تكمن فى الناس مؤكدة تكاثرهم ، وفى مخاطبتها مباشرة كشخصيات ، تشكل آلهة (ريج ـ فيدا) نوعا من تسلسل كهنوتى منظم يوحى بأن الأناشيد عناصر أقرها قانون إقامة الكهنة (١٤).

وتكمن القيمة العظيمة للـ « ريج ـ فيدا» فى تلك الأناشيد الدينية المسماة (المنتراس) والتى توجد معظمها فى الكتاب العاشر الذى يتناول الموضوعات الفلسفية وأهمها مايتناوله « نشيد الخلق ».

إنه يفكر كيف بدأ الخلق . أول كل شىء ، كانت هناك (الرغبة) البذرة الأولى وأصل (الروح). هذه الفكرة التى وجه إليها البوذا وأفلاطون من بعده الكثير من الاهتمام ، ليست مفصلة هنا لأن الشاعر يهمه أولا رهبة واعجاز الخلق ولا يهمه تفاصيل تركيبه ، وهو فى الواقع ينتهى بأسئلة بليغة عن قصد (١٥):

من يعرف يقينا ، ومن يستطيع أن يعلنها هنا ، متى ولدت .
ومن أين يأتى هذا الخلق ؟
الآلهة لاحقون لخلق هذا العالم . من يعرف إذن
من أين جاء العالم إلى الوجود لأول مرة ؟
هو ، أول أصل لهذا الخلق ، سواء شكله كله أو لم يشكله
عيونه تراقب هذا العالم فى السماء العلى ، أما أنه يعرفه يقينا أو

لايعرفه يقينا [١٦].

وبالنسبة لأسفار (يوبانشاد) نجد أنها أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر ، ففيها مجهود بذله إنسان دقيق دءوب ، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولاً أن يفهم العقل وأن يفهم العالم ، وما بينهما من علاقة . هذا طبعا اذا استثنينا التعاليم المصرية القديمة ، تعاليم (بتاح حوتب) [١٧].

والكلمة مؤلفة من مقطعين « يوبا » ومعناها « بالقرب » و «شاد» ومعناها « يجلس » ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم ، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض اللغز الذي كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه ، وفي الأسفار مائة وثمان محاورة؛ مما جرى بين المعلم وتلاميذه ، ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامي ٨٠٠ و ٥٠٠ ق . م ، وهي لا تحتوي على مذهب متسق الأجزاء ، بل تحتوي على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم مايزالان موضوعا واحداً ، وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا فهموها ، وجدوا أنفسهم بها توحيداً يحوطه اجلال الورع . وهذه الأسفار مليئة بالسخافات والمتناقضات [١٨].

ونقرأ في سفر « ميتريي » من أسفار يوبانشاد عن ملك خلف ملكه وضرب في الغابة متقشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفو ليفهم ، فيجد حلا للغز هذا الوجود ، وبعد أن قضى الملك في كفارته ألف يوم ، جاء حكيم « عالم بالروح » فقال له الملك : «أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية فهلا أنبأتنا عنها» ؟ فقال

الحكيم منذراً : « اختر لنفسك مآرب أخرى » لكن الملك يلح ، ويعبر فى فقره عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ، ذلك الخوف الذى تمتد جذوره فى كل ما تضطرب به رءوس الهندوس من خواطر وأفكار ، تقول الفقرة (١٩) :

« سيدى ، ما غناء اشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنىّ ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء اشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والاقبال على مايجب النفور منه أو الجوع والظمأ والفقر والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى ..»

وأول درس يعلمه حكماء اليوبانشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل ، اذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذى تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع فى أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ، الذى ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى هذا أن العقل لاخير فيه ، بل إن له لمكانة متواضعه وهو يؤدى لنا أكبر النفع اذا ما عالج الأشياء المحسوسة وما بينها من علامات ، أما إذا حاول فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية أو الحقيقة فى ذاتها ، فما أعجزه من أداة (٢٠).

والكثير من اهتمام اليو بانشاد هو فى تتبع مراحل الجدل ، وبالمثل فإنه من المثير أن تلاحظ التواضع الفكرى لكل من المعلم

والتلميذ . إن ما يدعون أنهم بلغوه ، ليس تطهيراً أو إنقاذاً ، بل معرفة الطريق إلى هذه الأمور ، لقد نادى بعض العلماء بأنه « ليس من أجل النظم التى تشيدها أو من أجل الحقائق التى يمكن القول بأنها اكتشفتها أنه لابد من تقدير هذه الكتب المقدسة تقديراً عاليا ، بل تقديرها الحقيقى ، من أجل البساطة والجدية التى تعالج بها المشاكل الكبرى ». مثل هذه المعالجة يجب أن يوصى بها بكل تأكيد فى مجال المفاضلة عن الجدل المجدب ، الذى كثيراً ما تكون المناقشات الفلسفية مقترنة به ، خاصة فى الحياة الأكاديمية (٢١).

ولدخول فرد ما جماعة دينية لابد له من المرور بمجموعةمن الطقوس التى تعتبر بصورة ما شكلاً من أشكال التربية الدينية ، وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل ، وانجاب طفل ذكر ، وضمان صحة الجنين . وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته ، تراعى الأم والطفل طقوساً تستمر لمدة عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها (السمسكارا Samaskara) وهى مجموعة الطقوس اللازمة (للترسيم) هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعاماً جافاً ، وإذا كان ذكراً فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه ما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس يتركها طوال حياته (٢٢).

ويعد الترسيم الخطوة التالية فى (السمسكارا) وهو يتم عادة عندما يكون الطفل بين سن ٨ ـ ٢. ولب الاحتفال هو أن يرتدى المرشح زىّ الناسك ويمسك فى يده صولجاناً على خيط مقدس

يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه الأيمن ثم يتلو الكاهن الرسمى من (جيترى ـ منترا Gayatri - Mentra) وهى أبيات من (الريج ـ فيدا) يتلوها الهندوس ـ وهم الطبقة العليا فى المجتمع ـ فى جميع طقوسهم :

« فلنفكر فى روعة وجلال
الاله سافترى
حتى يلهم عقولنا »

وعلى العضو المرشح ، فى هذه الحالة ، أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقه فى الدين ليصبح معلمه الروحى (Guru) ليعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة لاسيما الفيدا ، وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع، بل أعظم مما يظهره لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة ، فإن المعلم من خلال معرفته الدينية يهب الخلود (٢٣).

وعلى الطالب أن يظل أعزباً تماماً ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر الدراسى الذى قد يستغرق عند البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر ، وعلامة انتهائه ، إلا الاغتسال طبقا للشعائر .

الكتـــــابة :

ظهرت الكتابة فى شبه القارة الهندية فى وقت مبكر ، ففى الألف الثالثة ق . م تطورت الكتابة الهندية القديمة فى المدن الكبرى مثل موهينو وهارابا الخ فى وادى نهر الهند (٢٤).

وقد كانت هذه الكتابة تتألف من ٢٥٠ إشارة مختلفة تكتب بها النصوص المختلفة على الحجر والخزف وألواح النحاس ، إلا أن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من قراءةهذه النصوص . وفى الواقع أن أقدم هذه النصوص بهذه الكتابة ترجع إلى النصف الثانى للألف الثالثة ق . م ، واستمرت هذه الكتابة عدة قرون . وكما برزت هذه الكتابة الغامضة بشكل مفاجىء ، فقد اختفت بشكل مفاجىء دون أن تترك أى أثر على الكتابات اللاحقة فى الهند .

أما أقدم الآثار التى وصلتنا بالحروف الهندية المعروفة ، فترجع إلى الألف الثالثة ق . م ، وهى المراسيم المشهورة التى أمر الملك آشوى (٢٧٢ ـ ٢٣٦ ق. م) بنقشها على الحجر . ومع هذا فمن المعروف أن هذه الحروف قد استخدمت فى وقت أقدم ، وربما فى القرن ٨ ق . م ، وفى الواقع لدينا فى هذه النقوش فى عهد الملك آشوى نوعان من الكتابة يشتهر الأول باسم خاروشيش والثانى باسم براهمى . ومن هذا الأخير تطورت فيما بعد أنواع أخرى من الكتابة استخدمت لاحقا فى عدة ولايات هندية [٢٥].

ومن المثير أن الكلمة المكتوبة فى الهند لم تكن تتمتع بذلك القدر من الاعتبار سواء حين كان يستعمل هذان النوعان من الكتابة ، أو حتى حين ظهرت لاحقا أنواع أخرى من الكتابة فبالمقارنة مع كثير من حضارات العالم القديم ، فى أوربا وآسيا وأفريقيا الشمالية ، نجد أن الطريقة الرئيسية لانتقال النصوص الدينية والأدبية والعلمية من جيل إلى آخر هى المشافهة . وهكذا عن طريق المشافهة انتقلت إلينا الملاحم البطولية الضخمة مهابهاراتا وراميايانا والفيدات والأعمال الأخرى المشهورة للأدب والفلسفة الهندية

القديمة ، ثم المؤلفات التاريخية والبيوغرافيية والكتب المقدسة لكثير من الديانات الهندية .. وهكذا فإن الخط البوذى تريبيتاكا قد دون لأول مره فى نهاية العصر القديم فى سرى لانكا ، بينما دون الخط المقدس الآخر للطائفة الجائينية المعروف باسم سيد ذانتا فى القرن الخامس الميلادى فقط ، على أن هذه الطائفة كانت قد برزت قبل أكثر من ألف سنة . ويبدو أن السبب الرئيسى فى عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن فى تركيب المجتمع الهندى ، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمانا) كانت تعتبر أن من حقها فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن تتعرف على الانجازات العلمية والفنية الخ ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية فى القرن السادس ق .م التى صاحبتها فكرة الديمقراطية المتواضعة ، أى نشر المعرفة التى تهدف إلى تحذير الدين فى وسط الشعب (٢٦).

التربية البوذية

شهد عام ٥٦٣ ق . م مولد جوتاما بوذا (Gotama Buddha) الذي تركت حياته وشخصيتها انطباعاً أكثر بقاء على العالم الشرقى أكثر من أى شخص آخر قبله ، ظهركأحد كبار المجددين للفكر الذى ظلت تحيط بحياته الأسطورية والشعر (٢٧).

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه ـ شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره ـ هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل ، ولما لم يدر بخلده قط ـ كما لم يدر بخلد سقراط أو المسيح ـ أن يدون مذهبه ـ فقد لخصه فى عبارات مركزة ، أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة

من أتباعه ـ تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى [٢٨]، رجل قوى الإرادة صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن احسانا لاينتهى عند حد معلوم .

ووصف بوذا بأنه كان يَزوَرّ من غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة ، فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة ، وترفع عن النميمة ، كان يود أن يرد الحسنة ، والكراهية بالحب ، وإذا أسيء إليه فى النقاش أو أسيء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت ، « إذا أساء اليّ إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى اياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدته خيراً » ، فإذا جاء غر وأهانه ، استمع إليه بوذا وهو صامت ، حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا « اذا رفض إنسان أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » فيقول بوذا له : « إنى أرفض يابنى قبول إهانتك، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك » [٢٩].

تبدأ موعظة « بوذا » بعرض للإفراطين اللذين يجب تجنبهما : فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولاشيء يدفع بالعجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لايزيد من سخطنا على كل شيء آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه لملئه ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفاء لدين . وأما الأفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس (Mortification) وطبقا للبوذا ، فإن هذا الإفراط لم

يكن أكثر فائدة من الأول ، اذ أنه لاينجم عنه فحسب زيادة اضطراب بل يؤدى أيضاً من الناحية المنطقية إلى الفناء قبل اكتساب أية ميزة حقيقية (٣٠).

كانت طريقته فى التعليم فريدة ، لايماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشىء « للجوالين » أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى آثره ما يقرب من ألفى ومائتين من اتباعه المخلصين . ولم يكن يهتم أبدا لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ، ولقد وصمه ذات يوم أتباعه بالعار لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة . كانت طريقته دائماً ، أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، إذ كان يسوق تعاليمه في عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها فى صورة من الايجاز والترتيب بحيث تقر فى الأذهان ، وأحب عباراته التعليمية المقتضبة إلى نفسه هى الحقائق السامية الأربع ، التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعا (٣١).

١ـ تلك أيها الرهبان ـ هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء ،الخيبة واليأس كلها مؤلم.

٢ـ وتلك أيها الرهبان ـ هى الحقيقة السامية عن سبب الألم :

سببه الشهوة ، التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ ، تتسقطها هنا وهناك شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة وشهوة العدم.

٣ـ وتلك ـ أيها الرهبان ـ وهى الحقيقة السامية عن وقف الألم : أن تجتث هذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ـ وتلك ـ أيها الرهبان ـ هى الحقيقة السابقة عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم .

الطريق

والوصف القديم للطريق هو أنه ذو ثلاث شعاب هى : الأخلاق ، والتأمل والحكمة ، وهى ليست ثلاثة مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلو الأخرى وإنما هى شعاب أو دروب تسير عليها جميعاً في وقت واحد ، بيد أن للأخلاق أولوية خاصة ، فبدون الجهد الجاد فى مراعاة المبادىء الأخلاقية ، لن تكون ثمة ممارسة فعالة ومؤثرة للتأمل (٣٢).

ويعبر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية ـ بالنسبة للرهبان ولعامة الناس على حد سواء ـ فى صيغة تستخدم بانتظام فى العبادات الدينية ، أو يمكن ترجمتها على وجه التقريب كما يلى : « أتعهد بالإحجام عن إلحاق الأذى بالكائنات الحية ، وأن لا آخذ شيئا لم يعط لى (أى أن أمتنع عن السرقة) ، وبأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللا أخلاقية ، وعن الكذب وتناول الخمر والمخدرات التى تذهب العقل».

وهناك درجة أكثر تقدماً فى النظام الأخلاقى يتبعها البعض من عامة الناس ، وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادىء اجتماعية هى : أن أمتنع عن تناول الطعام بعد الظهر ، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية ، وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل ، وأن لا أتزين بأى نوع من أنواع الزينة .

وهذه الإضافات إلى قاعدة الحياة لعامة الناس ، يؤخذ بها فى الغالب أيام العطلات والأيام المقدسة كتعبير عن عمق الإيمان(٣٣) .

والجانب الرئيسى الثانى من الطريق الذى وضع بوذا معالمه هو التأمل ، فالسلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق أو المواقف الحقة ، والفكر والعمل معا مرتبطان بالوجود الحق لأن تنمية الفكر الحق ، أو المواقف الحقة (أو النصائح السديدة) ـ أى السليمة من الناحية الأخلاقية وهى من أول أهداف التأمل والتأثير المتبادل بين الفكر والعمل موجود فى الوصف المفصل للحياة البوذية بوصفها طريقاً ذا ثمان شعب والبنود الثمانية وعلاقتها بالتخطيط الثلاثى للأخلاق يمكن أن تعرض على النحو التالى (٣٤) :

١ـ الفهم الحق	الإيمان	الحكمة
٢ـ الفكر الحق	كبداية	كنهاية أو غاية
٣ـ الكلام الحق		
٤ـ الفعل البدنى السليم		الأخلاق :
٥ـ المعيشة الحقة		
٦ـ الجهد الأخلاقى الحق		
٧ـ الانتباه العقلى السليم		تأمل
٨ـ التركيز الحق		

أما الحكمة التي يصل إليها في النهاية من يحيا الحياة البوذية ، فإنها تتمثل في جملة التعاليم الأساسية لبوذا وأفكاره الرئيسية.

وإذا كانت (البوذية) قد أصبحت (ديانة) ، إلا أنها كانت ديانة بغير إيمان بالله ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل لقد رفض بوذا الروحانية في شتى صورها بالنسبة للإنسان . ولكن اذا كان ذلك كذلك ، فكيف يمكن أن يعود الحي إلى الحياة من جديد في ولادة ثانية كما ذهب؟ إذا لم يكن هناك روح فما الذى يتقمص أجساداً أخرى في ولادات تالية ليلقى عذابه على خطاياه؟ إن التناقض القائم بين القول (بالتناسخ) و «رفض الروحانية» واضح ، لم يحل.

وقد وضع الحكيم « باتانجالى» (patan jali) رياضة اليوجا سوتراس (Yoja sut ras) ربما بين سنتى ٣٠٠ و ١٥٠ ق.م

واليوجا ، باختصار ، تكتيك لتحرير العقل من ارتباطه بالحواس . وإذا ما تحرر العقل مرة ، فإنه لا يتجول على غير هدى في عالم أسمى من الطبيعة ، إذ يصبح هو بالفعل ما يسعى إليه.

وعندئذ يكون بحث النفس أو (الآتمان) هو عن (البرهمان) ـ هذه القوة التي يصعب تحديدها ، فيما وراء إدراكنا العقلى ، لأنها لاحدود لها وهي أيضاً أصل لأشياء البشرية والمقدسة (٣٥) . وإذا ما مر اليوجى بمراحل نظام اليوجا المتوالية ، فانه متغير بالرغم من أنه لايتغير فيزيائيا (أو على الأقل في الوقت الراهن) ، يتغير تغيراً سيكولوجيا ، ومن حين لآخر ، فيقال أنه يمكن أن يتغير تغيراً فيزيائياً (٣٦) .

ما مراحل الوصول إلى (الاندماج الكامل) تلك التى تسمى بـ : (Samadhi) ساماذى (٣٧) التى من المفروض أن يمر بها اليوجى؟

هى ثمانية فى عددها ، وتشكل هذه المراحل ، الوسيلة التى يمكن التخلص بها من الخمسة التى يطلق عليها اسم (حواجز) أو (عوائق) الانفصال ، نعنى بذلك الجهل (Avidya) ، نظرية الفردية أى أن الإنسان فرد مستقل بذاته ؟ الرغبة ، الكراهية ، الارتباط بالأشياء ذات الحواس وترتب المراحل كما يلى : **أولاً** تأتى ياما (Yama) ، ولعلها أصعب مرحلة من المراحل جميعها ، ولذا فإن كثيرين جداً من المتحمسين يصدفون عنها ، وهى تتضمن إخماد الرغبة والأثرة وأن يستبدل بها الإحسان والغيرية . **وثانياً** ، تأتى نياما (Niyama) وهى مرحلة يجب أن تتبع فيها قواعد سلوكية معينة مثل المداومة على النظافة ، واتباع دراسات تعبدية والقيام بطقوس معينة للتطاهر ، **وثالثاً** ، المرحلة التى توجه إليها أكثر عناية ، أى أسانا (Asana) ، أو بلوغ الوضع الصحيح ، وتماماً كما أن المرحلة الأولى تتضمن اخماد كل رغبة، كذلك المرحلة الثالثة تتضمن الإقلال إلى أقصى حد فى كل الحركات البدنية ... إلى آخر هذه المراحل .

التربية لدى الهنود

قامت فى الهند قبل الميلاد بنحو ألف سنة مجامع برهمية علمية تدعى باريشاد وهى تقرب مما نسميه الآن معاهد كلية ، وكان الباريشاد الواحد يضم ثلاثة من البراهمة ممن أتقنوا دراسة الفيدا ، ولما تقدم الزمن ، صار الباريشاد يحوى أحد وعشرين من البراهمة المتضلعين فى الفلسفة والديانة والقانون ، فكان يذهب إلى هذه المعاهد كل من أراد أن يهب حياته للعلم بشرط أن يكون من أفراد

حلقة العلم ، وهنالك كان يتعلم الفيدا بأجزائه وكل ما كان معلوماً وقتئذ من القانون والفلك والفلسفة (٣٨) .

وكان لدى الهنود مدارس حرة يديرها أفراد من (طبقة العلم) ، ويقومون بنفقاتها من عندهم . وكان التلاميذ يذهبون إليها للتعلم ويخدمون المعلمين بأجرة تعلمهم . ولم يتحتم على تلاميذ هذه المدارس أن يكونوا من طبقة البراهمة.

وكان التلاميذ ـ عموماً ـ يبدأون تعلم الكتابة على الرمل حتى اذا تقدموا بدأوا يكتبون على أوراق النخيل بقلم ذى سن حديدى ، ثم على ورق الشجر بالحبر (٣٩).

واشتمل منهاج التعليم على الحساب والكتابة ، ولكن كان الهدف الأساسى فى هذا التعليم المغلف بالغلاف الدينى هو زرع الأخلاق القويمة ، ولذلك كان النظام صارماً وإن لم يلجأوا إلى وسائل العقاب البدنى ، بل إلى الحرص الشديد على تكوين عادات السلوك الصالح منذ الصغر .

وبعد سن الثامنة يعهد بالتلميذ غالباً إلى (شيخ) هو أحد رجال الدين ويصبح التلميذ جليسه يتلقى عنه (الشسترات الخمس) وهى : النحو والفنون والصناعات والطب والمنطق الفلسفة . وكان للأستاذ على تلميذه حقوق ، فالتلميذ تابعه وخادمه ، يؤدى له الخدمات كلها ، ويبقى التلميذ مع أستاذه حتى العشرين من عمره ، ثم ينطلق إلى الدنيا على أساس قاعدة مؤداها أن التعليم يأتى ربعه من المعلم ، وربعه من المدرسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة.

وكان من حق التلميذ عندما يبلغ السادسة عشر أن يترك الأستاذ

لينتقل إلى احدى الجامعات الكبرى ، وهذه كانت قاصرة على البراهمة ولكن سمح للطلبة التالية بدخولها ، وفيها يتعلم الطلبة العلوم والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والشعر إلى جانب التعاليم والنصوص الدينية . ونظراً لأن الهنود كانوا يربون ويعلمون لا من أجل الأمور العملية ولكن للمثاليات فقد تشبعت ثقافتهم بالفلسفة والدين ، ومست العلم والفن والتجارة مسا خفيفاً (٤٠).

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ فى الدخول إلى إحدى الجامعات يتعلمون مجاناًبما فى ذلك أيضا المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة ، ولم يكن الطالب يسمح له بالتحدث إلى امرأة ، أو برؤية امرأة ، بل إن مجرد الرغبة فى النظر إلى امرأة ، كان يعد عندهم خطيئة كبرى ، واذا اقترف الطالب اثماً جنسياً ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، وأن يجوب الآثم الطرقات ، يطلب الصدقات ، ويعلن عن خطيئته . وكان الطلبة جميعا يطالبون كل صباح بالاستحمام فى أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجماعة ، ومدة الدراسة اثنا عشر عاماً ،ولو أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاماً، وبعضهم يقيم بها حتى الممات (٤١).

ولما كانت المرأة فى الهند غير كفء لتهذيب أبنائها ، تعلم أولئك الأبناء فى الغالب فيما يسمونه المجمع القروى ، وكان لهذه المجامع شأن كبير فى نظام الهند ، فهى التى كانت تعلم الأهالى مبادىء الدين وفصلت لهم فى قضاياهم ومنازعاتهم وعلمتهم كثيراً من قصص أجدادهم وسردت عليهم حكايات خرافية ونوادر أو أمثالا عديدة تحوى كثيراً من أخلاق الهنود وآدابهم وتظهر درجة رقى

الفكر الهندى ، ومنها مجموعة النصائح التى وضعها الفيلسوف البرهمى (ميديا) للملك الهندى (دبشليم) فى القرن الرابع قبل الميلاد وجعلها على ألسن البهائم والطير . ولقد ظهرت هذه المجموعة مكتوبة بالهندية فى القرن الخامس بعد الميلاد ، وفى القرن السادس أرسل كسر انوشروان ملك الفرس (برزويه) رأس أطباء فارس إلى الهند ليحصل على ذلك الكتاب ، فاستنسخه من خزانة الملك وعاد به إلى بلاد فارس ، وهنالك ترجم إلى الفارسية ، ولقد ترجمه من الفارسية إلى العربية عبد الله بن المقفع فى زمن المنصور الخليفة العباسى وسماه كليلةودمنة ، ومن العربية ترجم إلى اليونانية والتركية والعبرية والاسبانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والألمانية (٤٢)، وهذا الكتاب مجموعة حكم عالية تنبىء بفلسفة راقية ، نذكر منها :

- من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

- إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء أما الثلاثة التى تطلب : فالسعة فى الرزق ، والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة . وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى درك هذه الثلاثة فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ، ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والأخوان فيعود عليه نفعه فى الآخرة.

- رب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء (٤٣).

- إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين ، كالحجر الثقيل ، رفعه من الأرض إلى أعلى عسير ، ووضعه على الأرض هين.

ويظهر أن الدولة تدخلت فى التعليم العالى ، فيحدثنا المؤرخون أن جامعة (لاندا) ، وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية انشئت بعد موت بوذا بزمن قصير ، وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية ليصرف منها على شئون الجامعة . ويقال أنه كان يؤمها عشرة آلاف طالب. وتحوى مَائَة قَاعَة للمحاضرات إلى جانب المكتبات الكثيرة الضخمة ، ومساكن للطلبة ولها مراصد عالية تبلغ السحاب ارتفاعاً ، وكان المستوى العلمى فيها عالياً جداً ، لدرجة أن الأجانب فى البلاد المجاورة ومن ذوى العلم كانوا لايستطيعون مجاراة الطلبة فى اطلاعهم ومناقشاتهم ، فيعترفون لهم بالذكاء والغزارة الدراسية ، حتى أن أحد علماء الصين ممن زاروا هذه الجامعة أعجب بها ، ومكث بها خمس سنوات يناقش الطلبة ويجادلهم ويستمع إلى الأساتذة الجهابذة ، ويدلل على صعوبة الدراسة بها أن عدد الذين كانوا يرسبون فى الامتحانات أكثر من عدد الناجحين بالضعف (٤٤).

ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية ، وصميمها ، فإن العلوم التى كان شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو : فالفلك قد نشأ عن عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين ، ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية صحيحة فى تركيبها ، وفى مخارج أصواتها على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة، فقد كان علماء الهند ، كما كانت الحال فى معظم العصور الوسطى هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر (٤٥).

ومن المعروف أن ما يسمى خطأ بالأعداد (العربية) إنما هى

هندية ، فالهنود هم الذين ورّثوا العرب الأعداد برموز عشرة مما كان له أثره فى تطور ورقى علم الحساب .

وقد تحتم على كل من أراد أن يكون معلماً أن يدرس جميع مواد المنهج المعترف به ، وأن يكون قد قام بجميع واجبات الطالب البرهمى ، وعليه ألا يعلم إلا الأطفال الذين تسمح بتعليمهم عادات البلاد .

وكانت طريقة التدريس شفهية ، فشحنوا ذاكرة الطفل بالمحفوظات لدرجة لايكاد يتصورها أوربى (٤٦) .

بدأ الطفل الهندى الاستظهار من صغره ، فحفظ الحروف الأبجدية وكذلك استظهر نحو عشرين صفحة من اللغة السنسكريتية دون أن يفهم كلمة منها ، ومن الحفظ جاء الشرح ، وكان الغرض من ذلك أن يستظهر التلميذ الكتب المقدسة بدون تحريف فيها ، ولكنه لايستظهرها من كتاب بل من فم معلم ، فكان المعلم يجلس فى جهة مناسبة ، وإن كان له تلميذ واحد أجلسه على يمينه ، وأما إذا زاد عدد التلاميذ ، فلهم أن يجلسوا حيث أرادوا ، وعند بدء كل درس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم يجلسون فيبدأ المعلم الدرس بأن ينطق كلمة واحدة أو كلمتين قصيرتين فيرددها التلميذ المجاور له ، ومنه إلى تاليه ، وهكذا ، ثم ينطق المعلم كلمتين آخريين فيرددها التلاميذ بالترتيب ، ويستمر الدرس على هذا المنوال حتى يحفظ التلاميذ سطرين أو ثلاثة سطور شفهيا ، ثم يأخذ التلاميذ فى تلاوة تلك السطور بصوت جهورى حتى ترسخ فى أذهانهم ولا ينسوها ، وبعد نهاية الدرس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم ينصرفون (٤٧) .

ولما وجد الخط لديهم كان يعطى كل تلميذ نسخة مكتوبة باليد

، ثم يطالعونها بصوت جهورى حتى يستظهروها دون أن يتعبوا أنفسهم فى فهم معناها .

وكان النظام فى مثل هذه المدارس لينا مشفوعا بالشفقة إلا فى أحوال استثنائية استعمل فيها شيء من القسوة ، فقد قال (مانو) فى قوانينه : « يجب أن يتعلم الأطفال دون أن يشعروا بأى شيء يؤلمهم أو ينفرهم من التعلم ، والمعلم الذى يعرف للفضيلة معنى ، يجب عليه أن يستعمل اللطف والكلام العذب عند التدريس. فاذا ما أذنب تلميذ ، فللمعلم أن يعاقبه بالكلام القارص ويهدده بالضرب أن هو عاد إلى ارتكاب أى ذنب ، واذا ما جنى التلميذ جناية وقت الشتاء ، فللمعلم أن يعاقبه بصب الماء البارد فوق رأسه (٤٨).

وكانت مدارس الأطفال فى ذلك الزمن عبارة عن مجتمعات فى الهواء الطلق تحت ظل الأشجار صيفاً وتحت مظلات أو حواجز فى الشتاء أو وقت المطر وتعلم التلاميذ من الحساب المبادىء الأولية جداً . وكانوا يكتبون فى الرمل بعصى فى أول تعلمهم الكتابة ، ثم ارتقوا فصاروا يكتبون على سعف النخل بقطع من الحديد تشبه المسمار ، وبعد ذلك كتبوا بالحبر على أوراق أشجار مخصوصة ، وهذا الرقى فى الكتابة لم يصلوا إليه إلا قبل الإسلام بزمن يسير (٤٩).

وكان من عاداتهم المدرسية أن يعلم التلميذ المتقدم تلميذاً مبتدئاً ، وكان التلاميذ يختبرون بعضهم فى استظهار القطع ، ولذلك يمكننا أن نسميها طريقة التبادل فى التعليم.

هوامش الفصل الثالث

1ـ محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ص ٩٠ .
٢ـ المرجع السابق ، ص ٩١ .
٣ـ المرجع السابق ، ص ٩١ .
٤ـ ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م١ ، ج٣ (الهند وجيرانها) ، ١٩٦٨ ، ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
٥ـ المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
٦ـ المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
٧ـ المرجع السابق ، ص ١٦٦ .
٨ـ المرجع السابق ، ص ١٧١ .
٩ـ المرجع السابق ، ص ٢٧ .
١٠ـ أ. د . ف . توملين : فلاسفة الشرق . ترجمة عبد الحميد سليم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٩ .
١١ـ محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ٩٢ .
١٢ـ المرجع السابق ، ص ٩٣ .
١٣ـ فلاسفة الشرق ، ١٧٣.
١٤ـ المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
١٥ـ المرجع السابق ، .
١٦ـ المرجع السابق ، ص ١٧٧ .
١٧ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٤٣ .

١٨ـ المرجع السابق نفس الصفحة .

١٩ـ المرجع السابق ، ص ٤٥ .

٢٠ـ المرجع السابق ، ص ٤٦ .

٢١ـ فلاسفة الشرق ، ص ١٨٥.

٢٢ـ جفرى باوندر (محرر) المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) مايو ١٩٩٣ ص ١٤٤ .

٢٣ـ المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

٢٤ـ تاريخ الكتاب ، القسم الأول ، ص ٥٥ .

٢٥ـ المرجع السابق نفس الصفحة .

٢٦ـ المرجع السابق ، ص ٥٦ .

٢٧ـ توملين : فلاسفة الشرق .

٢٨ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٧٤ .

٢٩ـ المرجع السابق .

٣٠ـ فلاسفة الشرق ، ص ٢٢٦.

٣١ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٧٥ .

٣٢ـ المعتقدات الدينية ، ص ٢٢٥.

٣٣ـ المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

٣٤ـ المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

٣٥ـ فلاسفة الشرق ، ص ١٧٦.

٣٦ـ المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

٣٧ـ المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

٣٨ـ أحمد فهمى قطان ، ص ٩٥.
٣٩ـ سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، ص ٨٢ .
٤٠ـ المرجع السابق ، ص ٨٣ .
٤١ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٢٨٧ .
٤٢ـ أحمد فهمى قطان ، ص ٩٨.
٤٣ـ المرجع السابق ، ص ٩٩ .
٤٤ـ سعد مرسى أحمد ص ٨٣ .
٤٥ـ قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٢٣٥ .
٤٦ـ أحمد فهمى قطان ص ١٠٢ .
٤٧ـ المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
٤٨ـ المرجع السابق نفس الصفحة .
٤٩ـ المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

***

الفصل الرابع
التربية الصينية

الإطار الحضارى :

تعتبر الحضارة الصينية واحدة من أقدم الحضارات وأغناها، فمن وراثها تقاليد قديمة فى الشعر يرجع تاريخها إلى عام ١٧٠٠ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية، وبراعة فى صناعة الخزف والنقش لامثيل لها من نوعها، واتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لايضارعها فيه إلا اليابانيون، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيرا عند كثير من شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات، ونظام اجتماعى ضم عددا من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ، ودام أحقابا لم يدمها غيره من النظم[١] .

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون، أو إلى أى جنس ينتسبون، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم، وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى «هونان» و «منشوريا الجنوبية» على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام عن مثيلتها فى عصر ماقبل التاريخ فى مصر وسومر. ويشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث، فى شكله وتسنينه المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية لحصاد الذرة الصينية فى أوائل القرن العشرين، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف سنة متواصلة غير منقطعة[٢] .

وفى فترة سميت بالدولة الوسطى الزاهرة فى تاريخ الصين القديم،

سرت في الحياة الذهنية بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة في البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ الناس بها، فقد وضعت في هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة، والفن، ونشأ من ائتلاف الحياة التي أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الامبراطورية القوية السلطان، نشأ من ائتلافها ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود ابداعا وانشاء فى تاريخ الصين الذهبى، فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء، وفى آلاف المدن والقرى، شعراء ينشدون القصائد، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول (٣).

وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين، كما شهدا فى بلاد الهند وفارس، وبلاد اليهود واليونان، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من «الاستنارة» العقلية.

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الانساب العريقة مسلكا للرقى، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية، وسرعان ما كشف معلموا الشعب ما فى علوم الدين من إبهام وغموض، وما فى الأداة الحكومية من نقص، وعرفوا أن المقاييس

الأخلاقية مقاييس نسبية، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال المطلق. وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاججتهم. وتقول إحدى الروايات أن كونفوشيوس نفسه، وهو وزير الجريمة فى مقاطعة «لو»، حكم بالاعدام على موظف صينى متمرد بحجة أنه «كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال، وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال، وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس» (٤) ، وان كان البعض يشكك فى هذه الرواية.

وكان للصينيين عدة أديان أشهرها ثلاثة :

١- الكونفوشية: وسميت بذلك نسبة إلى كونفوشيوس، الشارع المصلح الصينى الشهير الذى ولد سنة ٥٤١ ومات سنة ٤٧٨ ق.م ، وله تعاليم فلسفية هامة أساسها الفضائل الطبيعية التى تؤيدها البراهين الحسية، فآمن بتعليمه خلق كثير بعد أن كانوا وثنيين وأصبحوا يعبدونه هو كإله، ويقدمون الذبائح من أجله.

٢- البوذية: نسبة إلى بوذا مؤسسها وهى ديانة هندية فى الأصل،كما رأينا، ودخلت الصين سنة ٧٦هـ، واعتنقها ملايين عديدة من الصينيين.

٣- التاوية : أسسها الفيلسوف الصينى «لاو . تزى» وكان معاصرا لكونفوشيوس، ولكن تعاليمه لم تأخذ شكل الديانة إلا فى أواسط القرن الثانى للميلاد، ولكنها انحطت حتى صارت ديانه أرواح، وشياطين وتعاويذ(٥) . وادعى كهنة التاوية أن فى وسعهم تحضير أرواح الموتى

ومخاطبتها.

وعبد الصينى آلهة الرحمة فى كل المعابد وسجد لكثير من الأصنام مؤملا أنه بعمله هذا وباجتهاده فى الدنيا يضمن لروحه انتقالا سعيدا بعد الوفاة. أما الصينى الكونفوشى فيعتقد أن ظواهر الطبيعة من زلازل وبراكين وعواطف وكذلك الأمراض المعدية كلها دلائل على سوء نظام أعمال الحكومة، كذلك بجّل الصينى أرواح أجداده لدرجة أن بعضهم عبدها.

أما احترامهم للأسرة وعيشتها فيفوق كل وصف، فللوالد سلطة غير محدودة على أبنائه. ومن واجبات الأطفال الطاعة العمياء للوالدين، فالأسرة فى الحقيقة مركز حياة الأمة فى الوجوه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، فمنها تنمو الفضائل ونظامها نموذج لنظام الحكومة، وما الحكومة إلا أسرة كبيرة ويعتقدون أن الزواج عمل مقدس وواجب اجتماعى على كل فرد، وكانوا يبيحون الخليلات، إلا أن أولادهن حرموا من الامتيازات التى تمتع بها أبناء الزوجات الشرعيات، وكانت علاقة المرأة بزوجها علاقة أمة بسيدها، وأظهر الصينيون احتقارهم للمرأة حتى عند الولادة، فإذاما كان المولود ذكرا، علقوا قوسا وسهما على باب المنزل وكسوا الطفل أفخر الثياب، وإذا ماكانت أنثى علقوا المغزل على الباب ولفوها فى أى قطعة من الخرق البالية، وإذا سئل والد عن عدد أولاده لم يذكر إلا عدد الذكور منهم فقط(٦) .

الفلسفة الصينية :

من أقدم الأفكار الميتافيزيقية الصينية ، فكرة الـ (ين Yin) و (يانج Yang) ومعنى «ين» الحرفى، هو «الظل» ،ويعبر عنه بالكتابة

التصويرية بالجانب الشمالي لجبل والجانب الجنوبي لنهر، لأنه في الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر، أما «يانج» فمن ناحية أخرى يعني «الضوء» ويعبر عنه بصورة مغايرة، و «يانج» ايجابي و «ين» سلبي، الأول ذكر والثاني أنثى، ولكن «ين» و «يانج» لايشكلان مذهب الثنائية Dualism الذي يقسم العالم إلى قسمين، هذه المبادىء من خصائص عالم الظواهر فقط(٧) . وعن طريق هذين العنصرين تتم عملية الخلق.

ولقد ورد أول بيان لفكرتي «ين» و «يانج» على ماتذكر في كتاب غامض عنوانه بقدرغموض محتواه: اسمه «آى – تشنج» I. Ching أو كتاب «المتغيرات» Book of changes ، وأن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقي ليتجاهلون مقدار مايتمتع به هذا الكتاب من مقام رفيع!!

أما أصل كل معنى في الكون ، فهو «التاو» Tao أي «الطريق» وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ «التاو» هو لاو – تزى Lao-Tze الذي له شهرته كمؤلف كتاب تاو – تي – تشنج Tao- Te- Ching الذي يعني كتاب دستور الطريق أو الفضيلة The Book of the Way and of virtue

ولد« لاو – تزى» سنة ٦٠٤ ق. م، في محافظة «هونان» Honan في الصين الوسطى وتوفي سنة ٥١٧ ق.م.(٨)

ولربما كانت فلسفة (تاو – تي – تشنج) واحدة من أكثر الفلسفات ثورية في صياغتها، وإذا فسرت تفسيرا حرفيا، أو فسرت حرفيا بالمعنى الذي نستطيع أن نفهمه، لمثلت هجوما على كل شيء اتجه إلى تشكل مايدعى حضارة، وينصحنا «لاو – تزى» بألا نتدخل

فى أمر من الأمور وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألا تتدخل فى أمر من الأمور، وباختصار لايرى شيئا سوى الشر فى كل فكرة الحكومات، وعلى غير شاكلة جملة الفلاسفة الآخرين هو لايمجد المعرفة ولا يصفها بالفضيلة كما فعل سقراط بعد ذلك بزمن يسير، بل هو على العكس من ذلك يمجد الجهل الذى يصفه بصورة قاطعة بالشقاوة، ومرة أخرى يرفض الحكيم الحق أن يجادل، وباتباعه «التاو» يضرب مثلا للبساطة والرضا، إذ باعتباره مثل معد، له تأثير مهدىء على مواطنيه، و «الحكيم» كما يقول «لاو - تزى» يباشر مهمته بدون مجهود، ويقدم تعليماته بدون كلمات، ان كافة الوصفات السوية لخلق مجتمع عادل، يغض هذا الفيلسوف النظر عنها باعتبار أنها لاجدوى من ورائها، بل خطرة ويجب أن تمتنع عن ذلك، لأنه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها، مادام أن كل المحاولات فى بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ماهو مقصود، «لو تخلصت من العلم، كما عرفت الحزن، تخلص من الحكماء ولا تتقبل الحكمة. وسيستفيد الناس مائة مرة، لاتركن إلى الإحسان وانبذ الاستقامة وسيعود الناس إلى واجبهم الأخوى وإلى الحب الأبوى»(٩) . تخلص من الحيل وانبذ المكاسب يختفى السالبون واللصوص، كن حريصا وتمسك بالبساطة، هذا هو جوهر رسالته.

أما أشهر زعيم فكرى صينى على وجه الإطلاق فهو «كونج - فو - تزى» Kung - Fu- Tze وهذا هو الاسم الأصلى- وهى تعنى حرفيا «كونج ، المعلم » ثم عرف باسم «كونفوشيوس» ، وقد ولد عام ٥٥١ ق.م فى مملكة لو Lu شانتونج الحالية Shantung.(١٠) .

وإذا كان كونفوشيوس لم يظهر أى ميل شخصى للتفكير

الصوفى، فلقد كان على علم بالسحر الذى كان يؤثر به مثل هذا التفكير فى جمهرة البشر وهو لم ينكر وجود عالم روحى أسمى. بل هو بالأحرى، أعطى الأولوية لاعتبارات الحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة، ولقد اتبع فى تأملاته الخاصة، مثلما اتبع فى تعاليمه، منهج البحث العقلى والمنطقى، أما عن تطوير حالات «السبات» طبقا لمبادىء «اليوجا» ، فقد رفض أن يطبقه بنفسه، بعد بضع تجارب مبكرة: « لقد قضيت يوما كاملا بلا طعام والليل بطوله بدون نوم لكى أتأمل، ولكن بدون جدوى، من الأفضل التعلم، ومرات ومرات» . عندما كان يسأل عن أمور فيما وراء الخبرة المباشرة البشرية، كان «كونفوشيوس» يجيب بكلمات أكثر وضوحا من البوذا نفسه، وإن كانت له دوافع مختلفة جدا، وعندما سأله تلميذه «تزو – لو » Tzu-Lu أن يتحدث عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين، أجاب: «إذا كنت لاتزال عاجزا عن أداء واجبك ازاء الأحياء، فكيف تستطيع أن تؤدى واجبك ازاء الأموات؟ وفى مناسبة أخرى، عندما سئل عن طبيعة الموت ذاته، أجاب فى شىء من الاستخفاف: « إذاكنت لاتفهم الحياة، فكيف يمكن أن تزعم أنك تفهم الموت؟» وكثيرا ما كان يتعرض تلاميذه لانتقادات بل سخريات النساك الذين كانوا يحيون الحياة البساطة وحياة العزلة، لأنه حتى ذلك الوقت كان ينظر إلى الشخص الحكيم على أنه الشخص الذى من الأفضل أن يركز أفكاره ويتخلى عن كل اتصال بالعالم. وقد كان لكونفوشيوس بالنسبة لهذه السخريات، دائما، رد مؤثر جدا: «أننى لاأستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات، وإذا لم أنضم إلى البشر فإلى من يمكن أن أنضم؟ وإذا لم يكن للحكيم الصائب أن يسود العالم، فلا ينبغى لى أن أشارك فى إصلاحه»(١١) .

والكونفوشيوسية تجمع بشكل مبدع بين الآداب السياسية والاجتماعية وبين الأخلاق الخاصة، وهي في حد ذاتها نظام فلسفى أكثر من أن تكون نظاما دينيا أو نظاما للعبادة، وهي في تعاليمها تستمد قوتها من «البوذية»، و «التاوية». وتتلخص التعاليم الأخلاقية والواجبات الاجتماعية فيما يطلق عليه «العلاقات الخمس» التى يتعلمها كل طفل كمبادىء للسلوك، وهذه هي علاقة الحاكم بالمحكوم أو بالرعية، وعلاقة الأب بابنه، وعلاقة الزوج بزوجته، والأخ بأخيه، والصديق بصديقه، وكما أن هناك خمس حواس وخمسة عناصر، وخمسة كواكب، وخمسة أجناس، وخمسة ألوان، وخمس نغمات موسيقية، وخمسة أذواق، وخمسة وجهات للبوصلة، فهناك أيضا خمس فضائل هي: «الإحسان، والعدالة، والنظام، والحزم، والأخلاص»(١٢) .

وربما تحتاج بعض العلاقات الخمس إلى شيء من التوضيح:

فقد استخدم كونفوشيوس حكمة Ten في حديثه عن علاقة الأمير بالرعية ويعني بها أن تكون خيرا إلى أقصى حد، وبأوسع معنى ممكن للكملة، ومن ثم كانت صفات مثل «انعدام الأنانية» واحترام الآخرين و الأدب والولاء للأسرة والإخلاص للأمير كلها صفات الرجل «الجين» فالرجل المهذب الخير «الجين» لايتذمر ولا يشكو وقت المحن، وهو جرىء واضح في مسألة الحق، لكن هذه كلها مجرد جوانب «للجين» فعند كونفوشيوس أن «الجين» نفسه هو نموذج متعال لم يبلغه سوى حكماء الماضي أنه كيان صوفي وهو الصفة الجوهرية للقداسة(١٣) .

وإذا كانت «الجين» هي صفة القداسة، فإن تي Te هي القوة التى

تبلغ بها هذه القداسة، أما الفضيلة فليست مضادة للرذيلة، وإنما هى بالأحرى، فضيلة باطنية ملازمة- هى قوة شىء ما أو فاعليته، وهى بهذا المفهوم أقرب إلى المعنى الذى يقصده كونفوشيوس، وهكذا يكون على الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة التى هى مركز رفيع تجاوز قوته كثيرا القوة البدنية أو القهر، والشخص الخير يمارس الفضيلة فيتحول الآخرون إلى الخير، والإنسان الذى يسعى لأن يكون «جين» بتهذيب قوته Te يبلغ المثل الأعلى للأمير، وهذا المثل الأعلى الأميرى، هو «تشن - تزو- Chun- Tzu » حرفيا: الأمير، يصبح فى تعاليم كونفوشيوس تجسيدا للمثل، العليا للسلوك البشرى، أنه الإنسان فى أحسن أحواله، الإنسان كما ينبغى أن يكون، وهذا الإنسان الأعلى «تشن - تزو» تحكم «لى- Li» الشعائر - سلوكه كله، وكلمة Li تعنى طقوس الديانة المبكرة، أصبحت عند كونفوشيوس شريعة كاملة للسلوك المهذب، فهى تتحكم فى ارتداء «الثياب» وفى المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والاخلاق الحسنة بصفة عامة، بل فى التصرف والايماءات والاشارات بحيث يضاف المظهر الخارجى الملائم إلى السلوك الأخلاقى(١٤) .

وقد لاقت آداب كونفوشيوس اقبالا تاماً وحازت الاعجاب العظيم، وقد قيل مرة عن الصينيين: «إنهم وضعوا أرفع قوانين أخلاقية أنتجها العقل البشرى من غير أن يستمد معونة الوحى الالهى، وان تعاليمهم البارزة ظلت أغنى ما ورثه كل عصر من العصور الحاضرة المتوالية عن كل عصر من العصور الماضية المتوالية. وقد أعلن هذا خاصة بسبب ذلك المبدأ الذى وضعه كونفوشيوس على لسان المدرس حين يسأل التلميذ قائلا: هل هناك كلمة واحدة يمكن استخدامها قاعدة عامة

لكل تجارب الإنسان التى تمر به فى حياته؟ فأجاب المعلم قائلا: بلى، أليس فى كلمة «تبادل المعاملة» الاجابة المناسبة؟ فما لاتريده لنفسك لاتقدم عمله للآخرين، ومن الغريب فى أخلاقهم أن يكون هذا بالنفى وليس بالايجاب(١٥) .

وهكذا كانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك فى ماهية الصواب والخطأ، ولم يكن علاجها فى رأيه هوالعودة إلى العقائد القديمة، وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس قويم صالح والجزء التالى منقول عن كتاب «التعليم الأكبر» يعبر أصدق تعبير عن المنهج الفلسفى الكونفوشى(١٦) .

« ان القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الامبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب أنفسهم، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع فى المعارف لايكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.

فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم، فلما تطهرت قلوبهم، تهذبت نفوسهم، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ولما انتظمت شئون أسرهم ،صلح حكم ولاياتهم، ولما

صلح حكم ولاياتهم أضحت الامبراطورية كلها هادئة سعيدة.

تلك هي مادة الفلسفة الكونفوشية، وهذا هو طابعها.

الكتابة:

يعتقد أن الصينيين بدأوا منذ الألف الثالثة ق. م. يتوجهون للكتابة وحسب رواية متأخرة فان الصينيين كانوا يستخدمون أولا للكتابة نظاما معينا، ثم لجأوا لاحقا إلى الكتابة التصويرية التي فقدت صلتها بالأشياء التي ترمز إليها بفضل التزيينات الأسلوبية، التي لحقت بها مما جعلها تتحول في منتصف الألف الثانية ق. م. إلى نظام آخر ومع الزمن، تم تبسيط هذا النظام وتنظيمه، ولكن حتى الآن لم يتغير هذا النظام الكتابي بشكل جوهري بعد ثلاثة آلاف وخمسمائه سنة من استخدامه(١٧) .

وقبل أن يكتشف الصينيون الورق كانوا يستخدمون للكتابة شرائط طويلة مصنوعة من أعواد البامبو، ثم درع السلحفاة والعظام وألواح الخشب والأحجار وأواني النحاس الخ، بينما لجأوا إلى استخدام الحرير أيضا وقد كتبت النصوص الطويلة على شرائط البامبو وعلى الحرير بينما كتبت النصوص القصيرة «المعادلات السحرية المختلفة وأسماء الناس الخ » على مواد أخرى.

وفي القرن الخامس الميلادي سجل لنا مؤرخ البلاط «فان يه » كيف أن «تساي لون» اكتشف سنة ١٠٥م، طريقة لانتاج الورق «نظرا لأن الحرير كان غاليا وشرائط البامبو ثقيلة مما كان يجعلها غير مناسبة للكتابة»، وكما يضيف المؤرخ فان يه فإن الورق منذ ذلك الحين أصبح يستعمل في كل مكان(١٨) .

إلا أن المؤرخين اليوم لديهم مايجعلهم يعتقدون أن اكتشاف الوسيلة لانتاج الورق لايرتبط بفرد واحد بل بسلسلة من الاكتشافات ،والاضافات للأفراد الذين سبقوا تساى لون، وعلى كل حال أن هذا الرأى يدعمه الآن اكتشاف قطعة من الورق تعتبر أقدم قطعة ورق معروفة حتى الأن وهى تسبق تقرير تساى سنة ١٠٥م.

وقد سجل لنا المؤرخ فان يه أن تساى لون قد استخدم لانتاج الورق لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق البالية وشبكات الصيد القديمة، وقد عمد تساى إلى طحن هذا المواد الأولية وإضافة الماء من حين لآخر حتى توفرت له عجينة، ثم فرش هذه العجينة على شكل شريحة رقيقة فوق مصفاة، وحين جف الماء أخذ شريحة الورق ودقها لكى تجف تماما، وبهذا الأسلوب توصل تساى لون إلى طبق رقيق ومتين من الورق. (١٩)

وكان الصينيون فى عصورهم الكلاسيكية يعمدون إلى الإكثار من الكتب عن طريق النسخ، ونظرا لتعقيد الكتابة الصينية، فان النسخ كان عملا مرهقا بالنسبة للنساخ الصينى، وذلك بالمقارنة مع عمل زملائهم فى حوض المتوسط، ولذلك فليس من المستغرب أن النساخ الصينيين كانوا يرتكبون أخطاء كبيرة مما كانوا يتسببون فى مشاكل مشابهة لتلك التى كان يتورط بها النساخ فى اليونان أو فى أوروبا.

ومن هنا فقد كانت طبقة رجال الدين القوية تهتم دائما بهذه المشاكل، وبالتحديد فى كيفية الحفاظ على الشكل الأصلى للنصوص الدينية المقدسة سواء كانت كونفوشيوسية أو بوذية (٢٠) .

معالم تربوية :

كان كونفوشيوس بطبيعة الحال أبرز المربين الصينيين، إذ مارس رسالته معلما أو حكيما أكثر تبكيرا فى حياته من معظم زعماء البشرية. وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلا لحكمته ولحياته المستقيمة معا، وفضلا عن ذلك، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة، ولما شجعه نفر من عشيرته المتحمسين، قرر أن يفتتح مدرسة، وكان ما انتهى إليه هذا الأمر هو أنه فتح داره لأى شخص يريد العلم، وكانت المصروفات تجبى على أساس قدرة التلميذ على الدفع، بيد أن «كونفوشيوس» لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة، لقد أخذ على نفسه تعليم «موضوعات» معينة أهمها التاريخ والشعر ومبادىء ما أسماه بالسلوك العام، Decorum ، ولما كان فى اعتقاده أن المجتمع يعانى من اجمال الحكمة التقليدية، لذلك فقد بذل «كونفوشيوس» جهودا مضنية ليلقن تلاميذه معنى الشعائر القديمة والأناشيد الرسمية، ناهيك عن مثل تلك المستودعات من الحقيقة «كتاب التغيرات»، وكان فوق كل شىء على إيمان كبير بفعالية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان(٢١) .

ومن تعاليمه : (٢٢)

- أن كلا من الحاكم والملك يأمر كبير وزرائه أن يبلغ دروسه فى الفضيلة إلى ملايين الناس.

- يجب على الأبناء - فى خدمة والديهم- عند صيحة الديك الأولى، أن يغسلوا أيديهم، ويمضمضوا أفواههم، ويمشطوا شعورهم ويغطوها بغطاء حريرى ويثبتوه بالدبابيس، ويربطوا الشعر

عند منابته بعصابة، ويمسحوا ما كان عالقا من الأتربة بالأجزاء غير المغطاة، ثم يرتدوا غطاء رؤوسهم تاركين نهايات الأربطة مرسلة، وبعدئذ يجب عليهم أن يرتدوا سترهم السوداء المناسبة، وأن يغطوا ركبهم بغطاء يثبتون فيه ألواحهم الصغيرة، وعليهم أن يعلقوا أدواتهم المناسبة التى سيستعملونها على يمين المنطقة وعلى يسارها، فعلى الجانب الأيسر توضع الممسحة والمنديل والسكين والمسن ومسمار ومرآة لاشعال النار فى الشمس، وعلى الجانب الأيمن قمع للابهام وسوار يلبس على الذراع واسطوانة توضع فيها آلات الكتابة وحافظة للسكين ومسمار كبير وملقط لالتقاط النار من الخشب، ويجب عليهم أيضا أن يرتدوا عقودهم وأن يحكموا رباط أحذيتهم.

وكان كونفوشيوس يعتقد أن البعد عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم، وكان شديد المراعاة للمراسم وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه، وكان يبذل قصارى جهده للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها، بعقيدته المتزمتة الصارمة، ويبدو أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان، ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقولة فيها بعض التواضع: «قد يوجد فى كفر من كل عشر أسر رجل فى مثلى» نبلى واخلاصى، ولكنه لن يكون مولعا بالعلم مثلى»، وقال مرة أخرى «قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس ولكن «خلق» الرجل الأعلى الذى لايختلف قوله عن فعله هو مالم أصل إليه بعد» . « لو وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهرا بأعمال جليلة، ولبلغت «الحكومة» درجة الكمال فى ثلاث سنين» (٢٣) .

على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام أنه كان متواضعا فى عظمته،

ويؤكد لنا تلاميذه أن «المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب: كان لايجادل وفى عقله حكم سابق مقرر، ولايتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن أنانيا أو أنانيا». وكان يصف نفسه بأنه «ناقل غير منشىء»، وكان يدعى أن كل مايفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الأمبراطورين العظيمين يو، وشون، وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول: لست أبالى مطلقا إذا لم أشغل منصبا كبيرا، وانما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقا بذلك المنصب الكبير، وليس يهمنى قط أن الناس لايعرفوننى، ولكنى أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفنى الناس(٢٤) .

ولم تؤسس الحكومة الصينية فى الزمن القديم مدارس نظامية لتعليم الشعب، إذ كان من الصعب جدا إدارة مدارس تكفى لأمة بمثل ضخامة الأمة الصينية، لكن الحكومة رأت أنه يكفيها أن تشجع التعليم بألا تقبل فى وظائفها العادية ولامراكزها السامية إلا من كان متعلما، وبذا أسست الحكومة لجنة امتحان أعضاؤها هم «هان لن» أو «المجمع العلمى» فى بكين فنظم المجمع امتحانات فى مواعيد محددة كل سنةأو مرة كل سنتين بحسب أهمية الامتحان، وكان باب الامتحان مفتوحا للجميع ماعدا أبناء الحلاقين ومن شاكلهم(٢٥) .

وكان نظام هذه الامتحانات تاما بمعنى الكلمة سنة ٧٠٠م، على أن التعليم كان منتشرا فى جميع أنحاء الصين فى زمن كونفوشيوس، أى فى القرن السادس قبل الميلاد، والأعجب من هذا أن المدارس كانت كثيرة قبل كونفوشيوس بقرون عديدة ، وكان للتربية منزلة رفيعة فى أعين المفكرين والحكام.

ويذكر أحد المؤرخين أن الصينيين كانوا يهتمون بالتربية منذ سنة

٢٠٠٠ ق. م. فكان الحكام يلاحظون المدارس والكليات بأنفسهم وتعلم في هذه المعاهد أبناء الأشراف فى زمن الاقطاعيات، أما عصر كونفوشيوس، فقد كان عصر اضمحلال، فجاء هذا المصلح ليعيد للتربية الصينية مجدها السابق وكان غرضه هو وأتباعه ألا تكون المراكز والوظائف وراثية. بل يجب أن تكون لمن يظهر تفوقا على أخوانه في امتحان مسابقة عامة، وانتشرت امتحانات المسابقة انتشارا عظيما فى القرن الثمن قبل الميلاد (٢٦) .

وعندما قبضت أسرة «تشو» على زمام الملك سنة ١١١٥ ق.م. اعتادت الحكومة أن تمتحن طالبى التوظف، وكان الصينيون فى ذلك الوقت قد بلغوا درجة عظيمة فى التربية، ولذا كانوا يمتحنون طالب التوظف فى الفنون الجميلة وهى:

الموسيقى والرماية والفروسية والكتابة والحساب، وكان على الطالب أن يكون ملما الماما تاما بالآداب العمومية وآداب المجتمعات، وعدوا هذا فنا جميلا سادسا، فهذه التربية السداسية تذكرنا بالمنهج الثلاثى والمنهج الرباعى فى المدارس الأوروبية فى القرون الوسطى.

وفى القرن الثامن قبل الميلاد كانت تعاليم كونفوشيوس قد انتشرت ولذلك تحتم على الطالب أن يبرهن على حسن سلوكه وأمانته، وكان امتحان التوظيف قسمين:

١- مهارتهم فى الفنون الجميلة الستة التى سبق ذكرها.

٢- المامهم بواحد أو اثنين من العلوم الآتية :

القانون المدنى - الأعمال الحربية- الزراعة- جباية وادارة

الأموال– جغرافية الامبراطورية مع التفات خاص إلى طرق المواصلات المائية.

وكانت الامتحانات تقسم إلى أقسام ثلاثة [٢٧] .

١– امتحانات الدرجة الأولى، وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام، ويطلب من الطالب فيها أن ينشيء ثلاث رسائل في موضوعات مختارة من كتاب كونفوشيوس ويوضع في حجرة خاصة منفصلا عن غيره حيث يمكث ٢٤ ساعة وهو يجهد عقله في كتابة الموضوعات ونسبة النجاح في هذه الامتحانات ضيئلة جدا لاتجاوز ٤ ٪.

٢– امتحانات الدرجة الثانية، وتقام بعد مضى أربعة أشهر على امتحانات الدرجة الأولى، وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام أيضا وتدوم ثلاثة أيام وتشبه في أسلوبها ونهجها الامتحانات الأولية إلا أنها أهم منها وأكثر صعوبة، ونسبة النجاح فيها ضئيلة أيضا لاتتجاوز ١ ٪.

٣– امتحانات الدرجة الثالثة، وتقام في العاصمة وتدوم ثلاثة عشر يوما ونسبة النجاح فيها أكبر منها من الامتحانات السابقة :

ومن أمثلة الموضوعات التي يسأل فيها الطلاب:

(أ) أن يكون الإنسان مقتدرا ويطلب المعونة من العاجزين. أن يكون الإنسان عالما ويطلب العلم من الجهال، وأن يكون غنيا ويظهر بمظاهر الفقر.

(ب) يجب أن يكون الرجل المخلص ذكيا، ويجب أن يكون الرجل الذكي أمينا.

وإذا كنا لم نشهد نظاما تعليميا حكوميا، إلا أننا نلاحظ انتشار مدارس القرى، وهى معاهد خاصة ساذجة لاتزيد قليلا عن حجرة واحدة فى كوخ صغير، كان يدرس فيها معلم واحد ويتناول أجرة من آباء التلاميذ، وكان أجر ضئيلا (٢٨) . ولم يكن يلج هذه المدارس إلا أبناء القادرين، أما الفقراء فلم تتح لهم فرصة التعليم، وغالبا ماكانت تأخذ المدرسة مكانها فى معبد من المعابد إذا لم تجد كوخا مناسبا أو سقيفة أو ركنا يأوى التلاميذ، ولم تكن هناك مدارس للبنات ولا تعليم لغالبية التلاميذ بعد سن الخامسة عشر، ولم يتعد الذين جاوزوا التعليم الابتدائى «الأولى» هذا أكثر من خمسة فى المائة.

على أن الدراسة بهذه المدارس المتواضعة خضعت لنظام صارم، فكان الأطفال يأتون مع مطلع الشمس ويدرسون إلى قرب المغيب، ولهم فترات راحة يتناولون فيها طعامهم، وفى هذه المدارس كان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وشيئا من كتابات كونفوشيوس وبعض الشعر، ووصفت اللغة التى استخدمت بالمدارس بأنها لغة ميتة لاتستخدم خارجها، ولهذا فان العمل المدرسى لم يكن يعنى الكثير عند التلاميذ، خاصة أن المعلم كان يلجأ إلى تحفيظهم على ظهر القلب، وإلى استخدام العصا لتأكيد هذا الأسلوب فى التعليم(٢٩) .

وإذا كان غرض التربية فى مراحل التعليم الأولية فى التربية الصينية هو أن يلم الصينى باللغة والآداب المقدسة. فمعنى هذا أن البنت لم يكن لها أى تقدير ولا منزلة فى تعليمهم الأدبى، أو فى معاهدهم التربوية، ونقصد بالإلمام هنا معرفة حرفية مطلقة للآداب بحذافيرها ومقدرة على إنشاء أسلوب شكلى ونمطى فى كتاباتهم(٣٠) .

وإذا كانت مرحلة التعليم الأولى مخصصة لاستذكار أشكال الرموز المختلفة وذلك بحفظ بعض النصوص التى أجمع على اختيارها وحفظ الكتب الدينية التسعة، فإن المرحلة الثانية كانت مخصصة بالترجمة أى حل تلك الرموز، وكما أن المرحلة الأولى كانت مخصصة بمجرد استذكار أشكال هذه النصوص والدروس الانشائية فالمرحلة الثانية هى مرحلة قراءة فعلية بمعنى ترجمة تلك النصوص، أما المرحلة الثالثة، فهى مخصصة لكتابة المقالات الانشائية حتى يكتسب التلاميذ فى هذا الفن مهارة كافية تمكنهم من النجاح فى الامتحانات ويتطلب هذا التدريب على تحرير المقالات دراسة عنيفة لصور الآداب وموادها، ومن المرحلتين الاخيرتين، يتألف التعليم العالى(٣١) .

ولم يكن على المدرسين من حرج ولم يحتاجوا إلى شهادة خاصة فى فن التعليم، لكن كان للحكومة الحق أن تغلق أى مدرسة وجدت أنها ردئية، وكان الآباء يستعملون منتهى الحذر فى اختيار المعلم الذى يسلمونه أبنائهم وكان المدرسون فى الغالب من حملة شهادة الفنون الجميلة، وأحيانا كانوا ، أرقى من ذلك، وكثيرا ما كان العلماء يفضلون مهنة التعليم على وظائف الحكومة، ، ولذلك كان المعلم أكثر الناس احتراما بعد حاكم المقاطعة. وكان عدد الأطفال الذين يلتفون حول مدرس للتعليم فى مدرسة القرية يتزايد بين العشرين والأربعين، وكانت ساعات التعليم من شروق الشمس إلى الساعة العاشرة صباحا، وبعدها يذهب الأطفال إلى منازلهم للغذاء، ثم من الساعة الحادية عشر إلى الخامسة مساء، وكان للمدرس مكتب ومقعد، وكل تلميذ يجلب من منزلة مكتبا ومقعدا لنفسه، ويدخل التلميذ

المدرسة فى سن السابعة تقريبا، وعندما يدخل طفل المدرسة، تقيم أسرته الأفراح احتفالا بذلك، وأول عمل يعمله الطفل عند التحاقه بمدرسة، هو حرق البخور أمام مذبح كونفوشيوس، وإذا لم يوجد مذبح، فكل ورقة عليها اسم ذلك المصلح الكبير تكفى للغرض، وبعد ذلك يحيى أستاذه بكل احترام ووقار (٣٢) . وعند مجيء التلاميذ ينحنون أمام صورة اله العلم وهى من أقبح الصور، ثم ينحنون للمعلم، وبعد ذلك يجلسون!!

وثمة نقطة أخرى تتعلق بطبيعة التربية الصينية جديربنا أن نشير إليها، فبينما يخصص للتعليم معهد خاص- وهو المدرسة- فإن الأسر، تقوم بتمهيد الأساس له بصفة خاصة، فغرس الأخلاق لدى الصينيين هو من مهام الأسرة ومحتويات أدبهم المقدس مرتبطة ارتباطا تاما بهذه العلاقات- وعماد ديانتهم عبادة السلف- وأن تقوى الأبناء هى أعظم فضيلة لديهم، بل هى سيدة الفضائل، والأسرة حقيقية هى أساس النظام الاجتماعى، وذلك لأن خطيئة الآباء قد يعاقب عليها الأبناء- على أن تشريعاتهم وأخلاقهم لاتخرج فى روحها عن الروح والقواعد التى رسمتها العلاقات العائلية- وبهذا الشكل، تسيطر الأسرة على المجتمع كما سيطرت نسبة الحياة إلى الجماد على الشعوب البدائية (٣٣) .

ويشهد جميع الباحثين الموثوق بهم أنه ليس هناك أى قطر من الأقطار ترى فيه التربية شكلية وتغلب عليها الصبغة الأدبية ولها من النفوذ العظيم ما للتربية فى الصين- وبأنه ليس هناك أى مكان آخر كان للتربية فيه نفوذ مباشر ودائم فى صبغ خلق الشعب بصبغة خاصة، وبأنه ليس هناك أى مكان آخر توجد فيه مظاهر نشاط التربية

وعملياتها، وعلى هذا، فالصين أصبحت بلاد الوحدة المطلقة، نتيجة لنظم تربيتها، فهى بلاد العرف والتقاليد المرعية، وهى البلاد التى لايسمح فيها بأى تغيير فى الطرق المعهودة فى التفكير والوجدان والعمل، وإن حدث مثل هذا التغيير فهو نادر، ومع ذلك فالتربية محدودة فى موادها، شكلية فى طرقها، وعلى نمط واحد لايتغير فى تنظيمها (٣٤) .

هوامش الفصل الرابع

١- ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦ ، م١ ، جـ٤ ص١١

٢- المرجع السابق ص ١٣

٣- المرجع السابق ص ٢٣

٤- المرجع السابق ص ٢٩

٥- احمد فهمى القطان: تاريخ التربية ، ص٨٢

٦- المرجع السابق ، ص ٨٣

٧- توملين : فلاسفة الشرق ص ٢٨١

٨- المرجع السابق ص ٢٨٢

٩- المرجع السابق ص ٢٨٣

١٠- المرجع السابق ص ٢٨٨

١١- المرجع السابق ص ٢٨٩

١٢- مونرو: المرجع فى تاريخ التربية جـ ١ ص ١٨

١٣- المعتقدات الدينية ص ٢٨٦

١٤- المرجع السابق ص ٢٨٧

١٥- الموجع السابق ص ١٩

١٦- قصة الحضارة ، ص ٥٤، ٥٥

١٧- تاريخ الكتاب ، القسم الأول ص ٤٧

١٨- المرجع السابق ص ٤٨

١٩- المرجع السابق ص ٤٩

٢٠- المرجع السايق ، ص ٥٠

٢١- توملين ، فلاسفة الشرق، ص ٢٨٧

٢٢- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٠
٢٢- قصة الحضارة ، ص٤٤
٢٤- المرجع السابق ص ٤٥
٢٥- احمد فهمى القطان ص ٨٤
٢٦- المرجع السابق ص ٨٥
٢٧- عبدالله عبدالدايم: التربية عبر التاريخ ص ٣٥
٢٨- سعد مرسى أحمد: تطور الفكر التربوى ، ص٧٤
٢٩- المرجع السابق ص ٧٥
٣٠- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٦
٣١- المرجع السابق ص ٢٧
٣٢- احمد فهمى القطان ص ٨٦
٣٣- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٢
٣٤- المرجع السابق ص ٢٥

الفصل الخامس

التربية عند بني إسرائيل

مقدمة :

من أكثر الكتابات لفتا للنظر مما تستحق معه أن نقدم بها الجزء الحالى هوماكتبه المفكر الفرنسى الشهير «جوستان لوبون» الذى أخرج كتابا هاما سنة ١٨٨٩ باسم «الحضارات الأولى» ورد فيه جزء خاص باليهود القدماء، أكد فيه لوبون [(١)] !

ولم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شيء تقوم به حضارة واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت فى شيد المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التى ليس لها تاريخ، وإذا ما صارت لليهود مدن فى نهاية الأمر، فلما أدت إليه أحوال العيش بين جيران بلغوا درجة رفيعة من التطور، بيد أن اليهود كانوا غاية فى العجز عن أن يقيموا بأنفسهم مدنهم ومعابدهم وقصورهم فاضطروا فى ابان سلطانهم أى فى عهد سليمان، إلى الاستعانة بالخارج، فجلبوا منه لذلك الغرض بنائين وعمالا ومتفننين لم يكن بين بنى إسرائيل قرن «مثيل» لهم.

وعلى ما كان من هزال [illegible] الصغيرة الكئيبة فى نشوئها العقلى مثلت بالديانات التى صدرت عن معتقداتها دورا بلغ من الأهمية فى تاريخ العالم ما يتعذر معه عدم الاكتراث لها فى تاريخ الحضارات » .

نستشهد بهذا القول اجابة على تساؤل قد يطرح علينا يتصل بمدى أهمية وضرورة الكتابة عن التربية عند بنى إسرائيل، خاصة ونحن نلتزم إلى حد كبير بالتأريخ للتربية فى «الحضارات» التى شهدها تاريخ البشرية، ولا يمكن أن يزعم أحد أنه قد كانت لهؤلاء «حضارة» خاصة بهم كما كان للهنود والصينيين والمصريين وغير هؤلاء وهؤلاء ممن ذكرنا وممن سوف نذكر.

ان التاريخ كما نؤكد بصفة مستمرة ليس مجرد متحف نجول فيه بهدف «المعرفة» فقط، وانما لابد كذلك من الربط بين ما «مضى» وما هو واقع، وواقع حياتنا المعاصرة يشير بكل الأسى والأسف إلى حقبة فيها صورة من صور «الهيمنة» لأعقاب بنى إسرائيل، لا على الأمة العربية المعاصرة فحسب، بل على القوى الكبرى فى النظام العالمى مما يوجب درس «البدايات» حيث سبق لنا أن أشرنا إلى أن درس البداية يعين إلى حد كبير على فهم ماحدث بعد ذلك، وبالتالى حسن التعامل والمواجهة.

النشـــأة:

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم- أبى الأنبياء إبراهيم الخليل- الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق، الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى «أور»، ومن قبل، كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك «الخزان البشرى» الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف كأقليم طرد أو كصحراء فقيرة، ولكنها «ولود» - يقذف بالموجة تلو الموجة إلى

منطقة الهلال الخصيب المتاخمة الجذابة(٢) .

ففي حوالي سنة ١٨٠٠ ق. م هاجر إبراهيم وقومه، في دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين، وهناك سيولد له «اسحق» ولاسحق سيولد «يعقوب» ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة في التاريخ والتوراة، ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين، وان كانت أولى هجرات القبائل اليهودية، فإنها لم تكن الأخيرة ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد، وانما على عدة دفعات جاؤا من عدةطرق وتحت عدة قيادات، والهجرة الثانية مثلا كانت في القرن الـ١٤ ق. م(٣) .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية - أو بالأحرى تسميات- اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات: إسرائيل والعبريون واليهود، والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل، الاسم البديل ليعقوب، أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث «عبروا» النهر- نهر الفرات أو نهر الأردن، لاندرى أيهما المقصود تماما، فسموا بالعبرانيين، ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru وعند البابليين Khebirru ولو أن هذه وتلك تعني- في رواية- البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم في كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم، أما التسمية باليهودية فتدل، أصلا على أبناء «يهودا» Judah , Jehudah أحد أبناء يعقوب الذين أصبحوا يمثلون البقية الهامة من بني إسرائيل بعد الأسر البابلي، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعا، واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب ياهو Jahveh Jehovah(٤) .

وحرص كتاب التوراة على تأكيد ملكية أرض كنعان بوعد من

«الرب» لإبراهيم حتى ليحار المرء: أى رب هذا؟! ولماذا كان حرص «الآباء» بعد ذلك على الهجرة إلى مصر، دون التمسك بوعد الله»(٥) .

(قال الرب لابرام- بعد اعتزال الوطن عنه- ارفع عينيك، وانظر الي الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لأن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيتها، ولنسلك إلي الأبد، قم امش في الأرض طولها وعرضها لأني لك أعطيها) تكوين- ١٣ .

ومن ظاهر لفظ (انظر) و (التي أنت ترى) لا تتجاوز الملكية كيلو مترا مربعا، لكن ما لبث الوعد أن ارتبط بالمشي في الأرض طولها وعرضها، مما يستدعي امكانية (المرعي)، ثم يتسع المفهوم، مع تطور أحلام كتاب التوراة، إلي أن (قطع الرب مع ابرام ميثاقا، قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات)- تكوين- ١٥ .

ولعلهم- من أجل هذا الميثاق- كانوا يذهبون إلي مصر، بحكم كونها داخلة في هذا الميثاق، ليبتاعو من خيراتها، وليتعرفوا إلي مسالكها ثم ليتسللوا اليها مقيمين متآمرين، علي أمل!.

وكان من تمام الميثاق أن الرب سيخرج من صلب ابراهيم اثنى عشر سبطا- أبناء يعقوب، اسرائيل- يملكون أرض كنعان، مقابل عبادتهم له وحده، وطلب منه أن يختن الذكور علامة هذا الميثاق (٦)

وما لبث ابراهيم أن ورثه باسماعيل من جاريته (هاجر) التي ارتحلت بابنها إلى الجنوب، الى واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، لتفسح الطريق أمام (سارة) التى أنجبت اسحق الذي أنجب يعقوب.

وقد هيأ لهم (يوسف- ابن يعقوب) في مصر، وارتحل يعقوب وأبناؤه بدعوة من يوسف، وكان عددهم سبعين فردا، وظلوا في مصر ما

يقرب من الخمسمائة عام، تكاثروا فيها حتى وصل عددهم إلي عدة آلاف، ثم بدأوا رحلة الخروج من مصر هربا من فرعون مصر سنة ١٢١٣ ق.م (٧).

وبدراسة (الأسباط) يتبين لنا أن اليهود علي الرغم من أنهم كانوا علي الدوام يزعمون أنهم شعب واحد، ويلقبون أنفسهم جميعا ببني اسرائيل، ويتظاهرون بعبادة الله، ظلوا طوال تاريخهم أسباطا منفصلة في أفلاكها وفي أخلاقها وفي تقاليدها وفي عباداتها حين كانت تعبد الألهة الوثنية. بل لقد كانت لا تفتأ العداوات والحروب والمعارك أن تنشب بين أسباطهم. ولم يكونوا يتورعون في هذا السبيل عن أن يتحالف بعضهم ضد بعض مع الممالك الأخري الأجنبية، ومن ثم فقد كان اليهود في كل أطوارهم شعبا مفككا مفتتا تمزقه الخلافات والمشاحنات وتطحنه العداوات والحروب (٨).

وقد ظهر بين اليهود أنبياء كثيرون أرسلهم الله ليوبخوهم علي شرورهم التي ارتكبوها ويحضوهم علي العودة إلى طريق الله، التى تنكبوها، ويحثوهم على العمل بشريعته التى أنكروها وتنكروا لها، وينبؤهم بما أعده الله لهم من خلاص للذين يؤمنون به ويتقونه، ومن هلاك للذين يكفرون به ويتمردون عليه. وقد كتب بعض أولئك الأنبياء أسفارا بنبوءاتهم تحمل أسماءهم، وقد تضمنتها التوراة بعد أن أوردت طرفا من سيرتهم، بينما اقتصر الأمر بالنسبة للباقين علي لمحات من أعمالهم وأقوالهم جاءت متناثرة في الأسفار الآخري من التوراة. بيد أن أولئك وهؤلاء يجمع بينهم أن الله اختارهم واتصل بهم وأبلغهم رسالة ليعلنوها أو كلفهم بمهمة ليؤدوها، فأبلغوا الرسالة وأدوا المهمة في طاعة لله وخضوع لمشيئته وخشوع أمام عزته وعظمته. (٩)

وترتبط اليهودية، باسم النبي (موسي) عليه السلام، الذي ولد بمصر من أبوين يهوديين من سبط (لاوى) هما عمران بن قهات وزوجته (يوكابد) وكانا قد أنجبا قبله أخته مريم وأخاه هارون، وكان مولد موسى بعد نحو ثلاثمائة عام وخمسين عاما من مجئ يعقوب وأبنائه إلي مصر، وكان فرعون في ذلك الوقت قد أمر بقتل أطفال اليهود الذين فى مصر كى يحد من تزايدهم السريع الخطر علي أمن البلاد، فلما ولد موسى خبأته أمه في سفط بين الحلفا على حافة نهر النيل. وقد تصادف أن نزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل فرأت السفط ووجدت بداخله الطفل، فعطفت عليه وتبنته وجعلت اسمه (موسى) أى باللغة المصرية القديمة (ابن الماء)، أو (المنتشل من الماء)(١٠) وحين اشتد عوده سلمته إلى الكهنة، فتثقف على أيديهم وعرف كل أسرار الكهنوت المصرى، كما أتقن كل العلوم والآداب والفنون المصرية التى كان الكهنة هم أساتذتها وصفوة المتخصصين فيها.

لكن عالم التحليل النفس الشهير (فرويد) لا يكتفي بالإقرار بأن اسم (موسى) مصرى، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى أنه مصرى الجنسية، فهو يستعين بما كتبه (برستد) فى (فجر الضمير) من ملاحظة أن اسم موسي هو الكلمة المصرية «موس» Mose ومعناها (طفل)، وهى اختصار لأسماء من قوم (آمنموس) ومعناها (آمون– طفل) و (تياحموس) ومعناها (بتاح– طفل)، وهذه بدورهما اختصار لشكل آخر هو (آمون منح طفلا) أو (بتاح منح طفلا)، ثم أصبحت كلمة طفل (موس) تغنى عن بقية الإسم. وكذلك فان كلمة (موس) بمعنى طفل ليست قليلة الشيوع فى الآثار المصرية، ولابد أن والد موسى ثبت قبل اسم ابنه اسم اله مصرى مثل آمون أو بتاح، ولكن هذا الاسم المقدس محى تدريجيا مع الاستعمال المستمر حتى أصبح

الغلام يدعى (موسى) فحسب[١١].

ثم يعقب فرويد على رأى (برستد) بأن هذا المؤرخ فى ذكره لبعض الأسماء التى تحمل لفظ «موس» تجاهل أسماء بارزة مثل (آح- موس)- أحمس- و (تحوت- موس- تحتمس-، (رع- موس) - رمسيس- مما يرجح- أو على الأقل- يبرز احتمال مصرية موسى[١٢].

التكوين السياسي والاجتماعي:

نشأ اليهود منذ آبائهم الأوائل فى قبائل تحكمها النظم والتقاليد القبلية. بعد أن كانوا قد هاجروا إلى أرض كنعان (فلسطين)، حدث جوع فيها، فهاجر يعقوب (اسرائيل) الى مصر حيث كان أحد أبنائه (يوسف) قد أصبح ذا مكانة عظيمة لدي فرعون، الذى نجح في أن يهبهم أرضا تقع فى الجزء الشرقى من الدلتا، وكانت من أجود أراضى مصر[١٣].

ثم خرج بهم النبى موسى حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثاني)، الذى استبعدهم «ومرر حياتهم فى الطوب والملاط» انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر.[١٤].

وفى التوراة أن قوة هذا (الخروج) كانت ٦٠٠ ألف نسمة، وكانت العودة إلى أرض كنعان الهدف، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين العمالقة أدى بهم إلى المعصية فعقاب (التيه) فى سيناء أربعين سنة.

انجذب بنو اسرائيل إلى أرض كنعان يحدوهم الأمل فى اغتراف (اللبن والعسل) من أنهار جنة الأحلام، ولم تكن شراذم البدو

الاسرائيليين تعتمد على جيش منظم يجيد الكر والفر، ولا على قيادة موحدة ينضم الجميع تحت لوائها، بل كانت من قبيلة تسير وفقا لهواها تمارس ألوانا من السلب والنهب لا من الحروب النظامية، فلم يكن هناك غزو لأرض كنعان تلاه احتلال بل حدث تغلغل بطيء دام عدة أجيال استخدمت فيه كافة الأساليب من حرب العصابات، الى احتراف الارتزاق لدى جيوش كنعان، حتى تمكنت القبائل الإسرائيلية من الاستيلاء على الهضاب المرتفعة شرق الأردن ثم غربه (١٥).

وكان نجم الفراعنة قد أفل في كنعان واستوطنت فيها قبائل الفلسطينين الآتية من بحر ايجة، واحتلوا منطقة الساحل وأقاموا مدنا مزدهرة ودارت مناوشات بين الفلسطينيين والاسرائيليين، عظمتها الأساطير حول شخصية (شمشون) ثم تمكن (شاؤول) من توحيد بين اسرائيل، وأقام أول مملكة في أرض كنعان.

وتميزت حروب بني اسرائيل بالقسوة والعنف والتعطش الى الدم، مثل قتل الرجال والنساء والأطفال والعجائز، بل حتى الأبقار والمعز والحمير، وحرق المدن بعد نهب الفضة والذهب وأدوات الحديد والبرونز، كما فعلوا بمدينة (أريحا) حتى تكون عظة لغيرها، والتنكيل بالأسرى، ثم شنقهم في الطرقات العامة.

ولقي شاؤول وثلاثة من أبنائه حتفهم على يد الفلسطينيين، فشرع زوج ابنته (داود) في تكوين دولة مستقلة في الجنوب، معتمدا على قبيلة يهوذا نصف الاسرائيلية ونصف الكنعانية، ودارت حرب طاحنة بين ملك يهوذا في الجنوب (داود) وملك اسرائيل في الشمال (ابن شاؤول) انتصر خلالها داود ووحد الملك بيديه واختار أورشليم عاصمة له (١٦).

وبلغت المملكة أوج عظمتها في عهد سليمان، اذ قلد ذلك

الحاكم الطموح كبار الملوك، ولم يفت فى عضده جهل الرعاة بالفنون، فاستقدم مهندسين ومواداً من فينيقيا، وشيد مجموعة من القصور الفخمة ملأها بالذهب والحرير.

وانتقل اليهود في عهد الملوك من رعى الضأن إلى الاشتغال بالزراعة لكن ما أن توفى سليمان حتى تأرجح كرسى الملك من تحت خليفته، وانقسمت شراذم الرعاة وطحنتها المعارك الداخلية، وانقسم الملك بعد سليمان الى دولتين، مملكة اسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب (فى منتصف القرن العاشر ق.م) (١٧).

وفي هذه الأثناء، كانت دولة الآشوريين تزداد قوة، فتوجه سرجون ٧٢٢ ق.م، الى الشام واستولى على السامرة، ونقل كثيرا من سكانها أسرى، ثم قضى على دولة يهوذا (١٨).

ثم سقطت القدس سنة ٥٩٨ق.م فى يد نبوخذ نصر ملك بابل وساق ما يقرب من سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل مكبلين بالحديد، فكان هذا الأسر البابلى الأول.

وبعد سنوات ثارت مملكة يهوذا بتحريض من مصر، فغضب نبوخذ نصر، ودمر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م، وحرق هيكل سليمان وسلب خزائن المدينة، ونقلها إلى بابل ونقل من سكانها عددا كبيرا، وأخذ معه نحو أربعين ألف أسير (لينوحوا عند مياه الفرات فى بابل)، وكان هذا هو الأسر الثانى(١٩).

ويعلل التلمود مانزل باليهود بأنه يرجع إلي فساد حياتهم فقد انتشر الزنا بالأخت وبالأم، كما انتشر اللواط والمساحقة ومواقعة البهائم، وخلطوا أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة، وعدت ضروب البغاء تكريما لعشتروت وعد الانهماك في السكر على بسط الأزهار وتحت

ظلال الزيتون نوعا من العبادة.

وطال أسر اليهود في بابل ستين عاما مما ساعد علي الاختلاط بحضارة عالية فضلا عن التزاوج بين الأسري والمجتمع الجديد، إلي أن سقطت الدولة الكلدانية تحت يد الفرس سنة ٥٣٨ ق.م حيث سمح لليهود بالعودة إلي فلسطين.

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولو أننا لا نعرف علي وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التي سلكوها إليها ومن ثم لا ندري إذا كان امتدادهم إليها يرتبط بالشتات البابلي أو بما تلاه من شتات، ففي الجاهلية الأخيرة، كان اليهود غير قليلين في مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن، ففي الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب. غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عربا محليين متجولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين، أما في اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كثيرة من سكان العصر السبئي إلي اليهودية، بل كان أحد ملوك سبأ في القرن السادس الميلادي يهوديا هو ذو الفواس، كذلك فقد كان اليهود الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا، ثم تحولوا مبكرا إلي القبطية، غير أن ظهور الإسلام صفي اليهودية تماما في الجزيرة العربية نفسها، فيما عدا اليمن (٢٠) .

ولم يختلف رعاة الأغنام من بني اسرائيل في نظمهم عن سائر الرعاة، إذ غلب النظام الأبوي ونسب الولد لأبيه، وتكونت الأسرة البطريركية، وتمتع الأب بحق الحياة والموت علي أولاده، وانزلقت المرأة إلي مكانة دنيا وأمست جزءا من (البيت) شأن الأمة والعبد.

وساد الزواج من الداخل حفظا علي الثروة من الضياع، بل عرف الزواج بالمحارم، وتعددت الزوجات في حدود ضيقة(٢١)..

وتحول بنو اسرائيل بعد اغتصاب كنعان إلي الاقتصاد الزراعي في ظل سيطرة الاقطاع فانتقل جزء من سلطة الأب إلي شيوخ المدينة، وتعدد الزوجات بالعشرات، ثم سكر الرعاة ولانت طباعهم بعد أن أقاموا في أرض (اللبن والعسل) وارتدوا عن دين (يهوه) وعبدوا آلهة الزراعة، وانحرفوا بالحياة الزوجية ومارسوا الدعارة.

وتميز عهد التلمود بغلبة طابع المنبوذين، بعد التفرق في الأرض والاقامة في الجيتو والاشتغال بالتجارة

ولم يكن للدين من أثر علي الزواج لدي رعاة الأغنام من بني اسرائيل فشاع الزواج من الداخل حفاظا علي الثروة من الضياع، وتمتع الرجل صاحب الثروة بحقوق مطلقة علي زوجاته وأولاده، وتثبتت تلك الحقوق في صلب كتاب التوراة، وانتقلت مع تعاليم الدين إلي المراحل الاقتصادية التالية(٢٢)..

ولما تغيرت الأوضاع الاقتصادية بعد زوال الملكية الجماعية، غلبت تعليم الأنبياء أثر كفاح دام قرونا، فألغى تدريجيا الزواج بالمحارم، وأمسى الزواج رابطة مقدسة ، وتطلب انحلال الزواج (كتاب طلاق) وحرم الزوج من حق الطلاق في بعض الأحوال.

وأبرمت القبائل حلفا مزعوما مع (يهوه) صارت بموجبه شعب الله المختار، وإن كان هذا لم يمنع سليمان فى أوج عظمته من الزواج بأجنبيات أما مع السبى البابلي وذلة اليهود، فقد حظروا الزواج بالأجنبيات غير (اليهوديات) حتى لا يختلط الزرع المقدس بالشعوب

النجسة!!

الديــــن:

تعددت آلهة اليهود في العهد الأول كما تعددت آلهة العرب في الجاهلية، فكان لكل قبيلة الاهها، أو مظهر من مظاهر الطبيعة تقدسه وتعبده.

لكن ظهور موسي عليه السلام كان نذيرا بتغيير شامل فى تاريخ هؤلاء القوم، إذ هز كيانها هزا وفتح لها آفاقا جديدة لم تكن لتعرفها لولا أن هداه الله، ويتضح هذا التطور من قصيدة عبرية تعتبر من أقدم قطع الأدب العبرى على الاطلاق، فهى تعطينا صورة صحيحة لأحوال القبائل الاسرائيلية بعد استقرارها فى فلسطين ومنها نتبين أن القبائل الاسرائيلية وان كانت متفرقة الكلمة إلا أنها تحس احساسا قويا عميقا بأنها شعب واحد وأمة واحدة ولم يكن هذا الاحساس وليد اقامتهم فى أرض كنعان، فالبلاد لم تفتح فتحا موحدا كما ذكرنا، ولكن هذا الاحساس الدفين بالقومية عمل تم فى عصر سابق لاستقرارهم فى فلسطين ثم بفضل نبوة موسى ومعجزته الكبرى(٢٣).

وتصور لنا هذه القصيدة أمرا آخر هو أن هذا الشعور العميق بالقومية كان يرتبط بالاعتقاد فى اله جديد تمجده هذه القصيدة يعلو على اله القبائل كلها هو إله موسى خالق الأرض، فاطر السموات.

والكتاب المقدس الأساسى هو (العهد القديم) مرت مادته بأدوار متعاقبة بالاختبار والتوضيح والنشر حتى بلغت شكلها النهائى الحالى، وقد اشترك كثيرون من المعلمين والمؤرخين فى كتابته من بعد بعثة موسى عليه السلام.

وكان أهم أثر لأنبياء بنى اسرائيل فى معاصريهم هو كتاب التوراة وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة (يهوه) إلى عبادة الآلهة الأجنبية، فأخذ الكهنة يتساءلون: ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية[٢٤]. ورأوا الأنبياء يعزون إلي (يهوه) ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن الهية تبث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية، وسرعان ماضموا إلي جانبهم الملك (يوشيا) فلما كانت السنة ١٨ (عام ٤٤٤ ق.م) أو نحوها من حكمه، أبلغ الكاهن (خلقيا) أنه (وجد) فى سجلات الهيكل ملفا عجيبا فض موسى فيه نفسه من جميع المشكلات التاريخية والخلقية. ودعا (يوشيا) كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم (سفر الشريعة) الذى أصبح (توراة) تزايدت وتراكمت عبر سنوات أخرى تلت[٢٥].

ويبدأ العهد القديم بأسفار موسى الخمسة Pentateuch[٢٦]، وأول هذه الأسفار، وهو سفر التكوين، يحدثنا عن أصل العالم والبشر ويتتبع تاريخ الإنسان حتى تكون نواة الشعب العبرى بإبراهيم وأسرته، ويحكى هجرات أجداد العبريين إلى فلسطين وأخيرا إلى مصر، والسفر الثانى، وهو سفر الخروج، يسوده شخص موسى، ويحكى قصة الفرار من مصر واعلان الشريعة من جبل سيناء، والسفران التاليان، سفر اللاوية وسفر العدد، يحتويان على مزيد من أحكام الشريعة، وأغلبها مما يمت إلى الطقوس، ويواصلان حكاية التجوال فى الصحراء حتى الوصول إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وآخر الأسفار الخمسة وهو سفر التثنية ويورد أحكاما أخرى للشريعة على أنها آخر مافرضه موسى قبل موته وأرض الميعاد على مرأى عينيه.

المشاكل المتعلقة بتأليف بقية أسفار العهد القديم هى عامة أقل خطورة من المشاكل المتعلقة بالأسفار الخمسة، وهى خاصة أقل أثرا منها فى تفسير التاريخ والدين العبريين، فالأسفار التاريخية تواصل تاريخ (الشعب المختار) من حيث انتهت الأسفار الخمسة، وتسير به على نحو يتفاوت كمالا واتصالا حتى القرن الثالث قبل الميلاد.

والعلماء مجمعون على أن أقدم ماكتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى فى سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم (يهوه) على حين تتحدث الأخرى عنه باسم (الوهيم) وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية، أكبر الظن أن كاتبه أو كاتبته غير كتاب الأسفار السالفة الذكر، وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد، والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من (سفر الشريعة) الذى أذاعه عزرا. ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى سنة ٣٠٠ ق.م[٢٧].

وقد قيل ان التشريع اليهودى قد تأثر بشريعة حمورابى. ورغم أن هذه الشريعة كانت ذات طابع صناعى تجارى وأن شريعة اليهود كانت ذات طابع زراعى رعوى، إلا أن هنالك ثمة تشابه بينهما.

وكان الكاهن فى الحياة العبرية واسطة بين الله والناس، والكهنة يؤلفون طبقة خاصة فى المجتمع.

وكثر الأنبياء فى بنى اسرائيل نظرا لما شاع من (تعديد) فى الآلهة[٢٨].

وإذا كان مدلول التوراة فى البداية ينصرف إلى الخمسة الأسفار

الأولى من العهد القديم، وهى المسماه أسفار موسى، لكن هذا المدلول لم يلبث أن اتسع فشمل أسفار العهد القديم كلها.

ويعتقد اليهود أن لشريعتهم قسمين: أولهما الشريعة المكتوبة، وهو الذى يسمونه التوراة، وثانيهما الشريعة الشفوية، وهو مايسمونه بالتقليد أو الفقه الذى نشأ عن تدوين أحكامه فيما بعد مايسمونه (التلمود) أى (التعليم) أو (كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم). ويزعم اليهود أن الله أعطى لموسى الشريعة غير المكتوبة مع الشريعة المكتوبة حين خاطبه على الجبل فى صحراء سيناء، وأن موسى أعطى هذه الشريعة غير المكتوبة لهارون واليعازر ويشوع ثم تواترت بعد ذلك.

وينقسم التلمود فى صورته الأخيره التى انتهى اليها بعد تدوينه إلى قسمين رئيسيين هما (المشنة) و (الجمارة).

واليهود يقدسون التلمود حتى ليعتبرونه أهم من التوراة(٢٩).

معالم تربوية:

وإذا كان اليهود قد عطلوا من الفن والصناعة عطلا تاما، فإننا نجد لهم آدابا غنية منوعة يجدر بنا الإشارة إليها خاصة وأنها كانت وسيلة أساسية فى تربية اليهود.

ويقف (العهد القديم) هنا فى مقدمة الينابيع التى تدفقت منها الآداب اليهودية، فالكثير من معارفهم التاريخية والدينية مستمدة منه، ومن جملة هذه المعارف - إلى جانب مؤثرات أخرى - يتشكل العقل اليهودى الموجه للسلوك، ففى التوراة تبصر التاريخ والأساطير والأقاصيص الخيالية والقصائد الرعائية والقطع الروائية والنبذ التعليمية

والأناشيد الدينية والأغانى الحربية والقصائد الغزلية والمجموعات الحكمية والنسبية والشرعية... الخ[٣٠].

وإذا ما أنقصنا من قيمة العهد القديم مافيه من أساطير بدائية، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم، وأقررنا أن مافيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ماكان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها، إذا مافعلنا هذا كله، فإننا لا نجد فى الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات[٣١]. ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل، كما يعتقد بعض العلماء، فى أثناء السبى أو بعده بقليل، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير، ويحتفظوا بها على مدى القرون، ولكن قصة شاؤول وداود وسليمان تفوق فى جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية فى الشرق الأدنى القديم.

والقصص الغرامية الساحرة الواردة في التوراة وسط بين التاريخ والشعر، وليس فى المنثور من الكتابة ماهو أدنى الى الكمال من قصة (راعوث)، ولا تقل عنها كثيرا قصة (اسحق ورفقة) ويعقوب وراحيل، ويوسف وبنيامين، وشمشون ودليلة، واستر، ويهوديت ودانيال، ويبدأ الأدب الشعرى بنشيد موسى (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و (نشيد دبورة)، و (القضاة) فى الفصل الخامس عشر، ويبلغ ذروته فى المزامير. وكانت ترانيم «التوبة» البابلية هى التى مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد[٣٢].

وفى كل زمان، كان لمجموعات الأمثال أهمية عظيمة فى آداب كل أمة، وذلك لما تؤدى إليه من النفوذ فى فكرها الأساسى.

ولم تشذ أمثال بنى اسرائيل عن ذلك.

ومن خلال تلك الأمثال التى لم تكن من وضع رجل واحد والتى كانت تتداولها الأفواه فتتكاتف فيها تجربة طول القرون، نبصر فكر بنى اسرائيل الحقيقى(٣٣)، وكان ذلك الفكر نفعيا عمليا، وهو الفكر الذى سيطر على شعب اسرائيل منذ دور الفتح، منذ الزمن الذى علم فيه هذا الشعب الشهوانى قيمة جميع خيرات الأرض فجعلته متحرزا ماهرا طامعا جشعا فى الربح ضيقا فى آفاقه، غير مستعد للتضحية بفائدة الساعة الحاضرة فى سبيل منافع حياة قادمة غير محققة، وفى سبيل إله مثيب!

«... الحكيم يخاف فيجتنب الشر، والسفيه من يسير على غير ذلك».

«... الغنى يكثر الأخلاء والفقير يفارقه خليله، وجميع إخوة المعوز يبغضونه».

«... فى كل تعب منفعة، وكلام الشفتين إنما هو الى الفقر».

«... اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمل طرقها وكن حكيما».

«... العامل بيد رخوة يفتقر، أما يد المجتهدين فتغنى».

«... من يجمع فى الصيف فهو ابن عامل، ومن ينم فى الحصاد فهو ابن مخز».

«... توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت».

ومن النصائح التى تتردد، حكمة تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة، تفوح بعطر مدارس الاسكندرية حيث كان

علم اللاهوت العبرى يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجها العقلية الأوربية[٣٤] : «الفطنة ينبوع حياة لصاحبها، وتأديب الحمقى حماقة.. طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة، وربحها خير من الذهب الخالص، هى أثمن من اللآلئ، وكل جواهرك لا تساويها، فى يمينها طول أيامك، وفى يسارها الغنى والمجد، طرقها طرق نعم، وكل مسالكها سلام» .

وقد ظل اليهود منذ نشأتهم حتى اندثار دولتهم قوما بدائيين فى طباعهم وعاداتهم وفى أسلوب حياتهم، فلم يخرجوا قط عن طور القبيلة البدوية التى لم تكتسب أى مظهر من مظاهر التقدم، ولم تصل إلى أى مرحلة من مراحل الحضارة، مما يشير إلى أى نوع من التربية سارت إليه تربية اليهود.

ولعل من أبرز الدلائل على تخلف اليهود وبقائهم فى حالة البداوة الأولى، أنهم حتى فى عهد الملوك - وهو أرقى عهودهم - لم يظهر بينهم كثير من أصحاب الصناعات المتخصصين، وإنما كانت كل عائلة تستوفى احتياجاتها الخاصة بنفسها، فتبنى بيوتها، وتزرع حقولها، وترعى ماشيتها، وتطحن غلالها، وتخبز خبزها، وتفتل غزلها، وتنسج نسيجها، وتحيك ثيابها وتصنع نعالها. وكانت تفعل ذلك كله وغيره من الاحتياجات العائلية بطريقة بدائية خشنة، لا جودة فيها ولا اتقان[٣٥] .

وقد تعلم اليهود بعض فنون التجارة من الفينيقيين الذين كانوا يجاورونهم، ولكنهم لم يبرعوا براعة الفينيقيين فى التجارة لعجزهم عن صناعة السفن.

كما تعلم بعض اليهود حرفة صياغة المعادن حين كانوا فى مصر، ولاسيما الذهب والفضة والنحاس.

وتعلم بعض آخر منذ أن كانوا فى مصر صباغة الأنسجة بألوان مختلفة، وكذلك دباغة الجلود، وصناعة الأوانى الفخارية.

ولما كانت أرض فلسطين زاخرة بأشجار الزيتون، فقد تعلم اليهود استخراج الزيت منه(٣٦).

وقد تعلم اليهود شيئا من الطب فى مصر، فكان بينهم أطباء، بدليل ما جاء فى الشريعة اليهودية من أن من ألحق اصابة بغيره، فعليه أن ينفق على شفائه، أى يدفع أجرة تطبيبه، كذلك وردت نصوص تشير إلى الأطباء فى عهد ملوك اليهود.

كذلك تعلم اليهود الكتابة من المصريين حين كانوا فى مصر، إذ نجد أن زعيمهم الذى أخرجهم من مصر وهو موسى عليه السلام، كان يعرف الكتابة فقد جاء فى سفر الخروج « فقال الرب لموسي اكتب هذا تذكارا فى الكتاب »وكانوا يحفرون مايكتبون على ألواح من الحجر أو الخزف أو الخشب أو ينقرونه فى صفائح معدنية كالرصاص أو الحديد أو النحاس أو البرونز، أو ينقشونه على أنسجة من الكتابة أو رقائق من الجلد أو لفائف من البرديات المصرية، وكانوا يستخدمون كذلك أقلاما من الحديد يضعون فى رؤوسها أحيانا قطعا من الماس أو أقلاما من القصب يهذبونها بمداة يصنعونها لهذا الغرض، أو فرشاة يرسمون بها الكلمات رسما. وكانوا يستخدمون لهذه الغاية نوعا من الحبر يضعونه فى دواة يعلقها الكاتب فى البردية فى هيئة لفائف مختلفة الطول يسمونها الأدراج، ويلصقون فى كل من طرفيها قضيبا من الخشب بحيث يمكن للقارئ أن يفردها أو يطويها،

ويشير إلى ذلك أشعيا النبى حين يقول «وتلتف السموات كدرج». وكانوا يضعون كل درج من هذه الأدراج فى غلاف من الجلد أو الخشب، وكان اليهود يكتبون لغتهم العبرية بحروف مأخوذة فى الأصل عن الحروف الفينيقية، التى كانت بدورها مأخوذة فى الأصل عن الحروف المصرية القديمة[٣٧].

وقدر للأسرة العبرانية أن تلعب دورا رئيسيا فى نقل مبادئ الدين والتقاليد القومية، فالتوراة تجعل تعليم الشريعة فريضة دينية على الأب أن يقوم بها ووظيفة المجتمع أن يضطلع بها «فلتكن هذه الكلمات التى أنا آمرك بها اليوم فى قلبك وكررها على أولادك وكلمهم بها إذا جلست فى بيتك وإذا مشيت فى الطريق وإذا نمت وإذا قمت». كما جاء فى سفر التثنية، وفى عدة مواضع أخرى يكرر العهد القديم هذا الأمر على الآباء ويأمر الأطفال فى المقابل باجلال واحترام آبائهم[٣٨].

فكان على الطفل أن يتربى على أن يكون مخلصا لـ (يهوه)، ولذا لم يكن عليه أن يكتسب معلومات واسعة، بل يكفيه أن يتعلم، عن طريق المثال والقدوة، القواعد الخلقية والمعتقدات الدينية. ولقد قيل بحق أن الاتجاه الذى تأخذه التربية لدى جميع الشعوب، يتصل بما يفهمون من معنى الإنسان الكامل. فهو عند الرومان الجندى الباسل الذى يحتمل النصب ويخضع للنظام، وهو عند الاثينيين ذلك الذى يحقق الانسجام بين الكمال الروحى والكمال الجسدى. أما الإنسان الكامل فى نظر العبريين فهو التقى الفاضل الذى يبلغ هذا المثل الأعلى الذى سنه الإله نفسه فى التوراة إذ قال «كونوا قديسين مثلما أنا قديس أنا ربكم الخالد»[٣٩].

ويرى بعض مؤرخي التربية أن الأعياد والاحتفالات الدينية لعبت دورا لاتضاهيه أية وسيلة تربوية أخرى فى تلقين النشء تراثهم الدينى القومي. فالأعياد كونت دورة سنوية تلقى وتعلم كل جيل جديد من خلالها الأحداث الهامة فى حياة الشعب وتجربته الدينية والسياسية. وكل عيد دينى كان مناسبة لتدريب الطفل على العبادة وتلقين مبادئ الدين. وقد نصح الآباء بتعليم الأطفال العيد ومعناه فى أثناء الاحتفال به أو قبله. ونظرا لوجود عنصر الدراما فى هذه الاحتفالات الدينية، واعطاء الطفل دورا فى أدائها، فقد كان لها أكبر الأثر فى التأثير على الطفل وتشكيله قوميا، ففى عيد الفصح على سبيل المثال، إذا تساءل الطفل عن معنى أكل الفطيرة بدون خميرة، أجاب الأب: «هذا بسبب ماصنع الرب لى حين أخرجني من مصر». أما إذا سأل الطفل عن معنى الذبيحة قائلا: ماهذا؟ فالأب يجيب: «أنه بيد قدير، أخرجنا الرب من مصر، دار العبودية»(٤٠).

كما استخدم سرد التاريخ وسيلة لتلقين الجيل الجديد تاريخ العبرانيين فى أثناء تجوالهم واستقرارهم فى كنعان، فالتقاليد والأساطير والأغاني والقصص نقلت شفهيا من جيل إلى جيل قبل أن تدون، وقد قام بهذه المهمة الأب أو الكبار من العائلة. ومن المحتمل أيضا أن الذى قام بهذه المهمة منشدون متجولون، وكان لهذه الأقاصيص جاذبية خاصة لأن بعضها كان يرمى إلى اعطاء إجابة للأسئلة التى يثيرها العقل الإنسانى بخصوص أصل الإنسان والعالم الذى يعيش فيه، وبخصوص الاختلاف بين الأجناس واللغات. وكان الأب يقوم بسرد تاريخ قبيلته لطفله، فالقبيلة بالنسبة لهم كانت كيانا مقدسا، وبهذه الطريقة المثيرة تم تناقل الأفكار والمعتقدات والتصورات والأوهام من

جيل إلى جيل، وقد كان هذا التراث الشفهى من قصص وأغان وحكم يسرد إما للترفيه أو التنوير أو اذكاء العصبية القومية أو بث الإيمان الصحيح والحث على العمل الصالح(٤١).

وكان الكهنة في الزمن الأول يقومون بتضحية القرابين العمومية (نقول العمومية) لأن الاسرائيليين كثيرا ماقدموا ضحايا خصوصية كما كانت تفعل الأمم الأخرى، ولا حاجة لحضور كاهن عند تقديم قربان خاص، ولم يسلموا من الاعتقاد فى السحر والتعاويذ، إذ كان ذلك شائعا بين جميع أمم الأرض فى ذلك الزمن، واختصوا بتفسير الأحلام والتنبؤ عن حوادث المستقبل وكان للكهنة اليد الطولى فى تربية الأمة لعلاقتهم بها فى أحوال المدنية، فهم الذين كانوا يعطون النصائح والارشادات للأمة، وهم الذين قضوا بين الناس فى منازعاتهم وبسطوا حمايتهم على كل مظلوم(٤٢).

وكانت عامة الناس تعتقد أن الله هو إله العبرانيين وأن مقره فى طور سيناء وأن عبادته لاتمنع عبادة آلهة آخرين - لكن المفكرين منهم اعتقدوا اعتقادا أرقى من هذا بكثير، وربما خالفوا الكهنة. أما هؤلاء الأفراد، فهم الأنبياء، فبدأوا ينبئون قومهم ويغرسون فيهم عقيدة روحية راقية من ابتداء القرن الثامن قبل الميلاد، وكان الأنبياء يبثون فى أفئدة الأفراد بذور تربية راقية، تربية دينية بحتة، وكلفوا الأمراء والشعب على السواء عبادة الإله الحق(٤٣).

وفى عهد الأنبياء، ظهرت فئة الكتبة وعظمت أهميتها، وكانت وظيفة الكتبة المحافظة على القانون وتدريسه. وكثيرا ماكانوا ينسخون تاريخهم المقدس ومنهم جاءت فئة المعلمين.

ولعله من الضرورى أن نشير إلى أن فئة الكاتبين أو الكتبة كانوا قد

ارتقوا وحازوا اعتبارا عظيما قبل سنة ٣٠٠ ق.م وكان لكل فرد الحق في أن يتعلم ويصير كاتبا، ولذلك كثر عددهم بعد عودة اليهود من أسرهم وصاروا فئة العلم والقانون ومن نوابغهم خرجت فئة المعلمين الذين كانوا يدرسون تفسير التوراة وشرحها. وخلف الأنبياء الشرائع وألف الكتاب التفاسير فجمعت شملها في كتاب واحد هو التلمود.

وكان تدريس الكتاب شفويا، فاضطر كل من أراد أن ينبغ فى التفسير كي يصير معلما أو مستشارا دينيا أن يشحن ذاكرته شحنا ويحملها عبئا ثقيلا، وكان التدريس بصحن المعبد فى أورشليم (بيت المقدس)[٤٤].

وكان الكاتب لايقتصر على التعلم أو التعليم إذا كان فقيرا، بل يعمد إلى الاحتراف بحرفة أخرى يكسب منها عيشه، ولم يكن التدريس قاصرا على فئة دون أخرى، بل كان لكل فرد الحق فى أن يحضر تلك الدروس، وكانت هذه المعابد تعرف عند ظهور المسيحية باسم (المدارس الربانية)، وكان تأثيرها فى القوم أشد من تأثير الكهنة.

وكان التعليم شفويا جدليا، فالمدرس يسأل الطلبة رأيهم فى موضوع خاص وهم يجيبون ولهم الحق أن يسألوه فى أى نقطة غامضة فى الموضوع أو يناقشونه فيما يقول. وكانوا يجتهدون فى استظهار ألفاظ المعلم لفظة لفظة كما هى الحال حتى وقت قريب فى معظم بلداننا الشرقية[٤٥].

والحق أنه يمكن القول بأن أول مبنى مدرسى من أجل الدراسة هو بيت الدراسة (بيت هامدراشى بالعبرية)، وتعد بيوت الدراسة هى أولى أشكال (الحلقة التلمودية) التى أخذت شكلا أكثر تحددا، وظلت تتطور إلى أن أصبحت المدرسة التلمودية العليا[٤٦].

ومن أوائل الحكماء الذين كان لهم بيوت للدراسة أو حلقة دراسية شماى وابتليون، أما أشهرهم فهو هليل الذى حضر من بابل للدراسة فى فلسطين، وأصبح شخصية هامة فى القدس، وعرف بقدرته ومرجعيته فى استخراج الهلاخاه أى الشريعة، وقد عرف اتجاه هليل التربوى والفكرى باسم بيت هليل، واشتهرت مدرسته بحفاظها على روح النص التوراتى أكثر من حرفيتها فى تفسيرها للتوراة، هذا على عكس اتجاه شماى معاصر هليل الذى عرف باسم بيت شماى واشتهر بحرفيته فى تفسير التوراة واستخراج التشريعات، وبتزايد تلاميذ هليل وشماى، ونظرا لكثرة الخلافات بينهما فى التفسير ، يقال إنه منذ هليل وشماي أصبح هناك شريعتان عند بنى اسرائيل، واحدة تتبع بيت هليل، والأخرى تتبع بيت شماى(٤٧).

ولم تقتصر الخلافات بين المدرستين على الخلافات الفكرية، بل امتدت لتشمل سياسة القبول، فبينما أكد بيت شماى أن دارس التوراة يجب أن يكون حكيما متواضعا ومن نسب كريم معروف، كان بيت هليل يقبل أى طالب يود دراسة الشريعة بغض النظر عن نسبه. وقد تتلمذ على يد هليل كثير من العلماء الذين لعبوا فيما بعد دورا هاما فى تطوير الفكر الدينى اليهودى.

وبينما شاطر أفراد الطبقة العليا المكتبة علومهم وفلسفتهم، طرأت حركة جديدة سببت للشعب جميعه تقدما محسوسا، ذلك أن اليهود أسسوا المعابد من زمن عزرا فى جميع أنحاء البلاد، وكانوا يذهبون اليها كل أسبوع لسماع التوراة وتفسيرها وللقيام بفروض الصلاة.

وبعبارة أخرى، فإنهم أوجدوا للعامة مدارس المعابد، يتلقون فيها مبادئ دينهم، ولا يخفى أن هذه المعاهد كانت عاملا قويا جدا فى

ترقية اليهود دينيا وأدبيا وسياسيا، إذا استفاد منها الكبار والصغار، وكان لكل مدينة معبد فى القرن الرابع قبل الميلاد، ومن ثم انتشرت، حتى إذا ماجاء القرن الثاني، كان لكل قرية معبد. ويقال أن (قيّم) المعبد كان يعلم الأطفال أثناء الأسبوع، وبذلك أصبحت المعابد مدارس نظامية للأطفال والراشدين معا، لكنه يجب علينا ألا نستنتج من هذا أن جميع الأفراد تعلموا القراءة والكتابة والحساب فى القرن الثالث قبل الميلاد، إذ ليس لدينا برهان قوى على وجود مدارس للأطفال قبل سنة ٢٠٠ ق.م. فكل من تعلم شيئا من ذلك قبل هذا التاريخ تلقاه على أيدى والديه فى المنزل(٤٨).

وفى ذلك الزمن، ارتقت الأمة اليونانية، فاقتبس كتاب اليهود شيئا كثيرا من علومها، وتعلم عدد وافر منهم اللغة اليونانية وآدابها والعلوم الرياضية واللغات الأجنبية والجغرافيا وكل العلوم الطبيعية المعروفة وقتئذ بما فيها علم الفلك، واضطروا أن يترجموا كتابهم المقدس من العبرية إلى اللغة الآرامية، لأن أغلب اليهود فى ذلك العهد، كانوا لايحسنون فهم اللغة العبرية، وهم الذين جعلوا للغة آدابا يجمعها التلمود.

ولم تتطلب دراسة الشريعة فى الحلقات التلمودية تعلم التفسيرات والتشريعات المشتقة منها وحسب، وإنما تطلبت أيضا التلمذة على يد المعلم والعيش معه كابن وخادم، وملاحظة سلوكه ومحاكاته، وكان الطالب يتبع معلمه فى جولاته أينما ذهب، إما لتدريس الشريعة أو للوفاء باحتياجات الجماعة الدينية أو المدنية، وغالبا ما عاش المعلم وطلابه عيشة جماعية يتناولون طعامهم سويا، الأمر الذى أتاح الفرصة أمامهم للتعلم بشكل دائم والمشاركة فى الممارسات المختلفة

للمعلم، التربوية والدينية والاجتماعية، وفى حالة وفاة المعلم كان طلابه ينتقلون إلى معلم آخر وفى بعض الأحيان كان أحسن الطلاب يقيم مدرسة خاصة به، إما فى نفس المكان الذى كانت توجد فيه مدرسة معلمه أو فى مكان آخر(٤٩).

ومن العسير أن نختتم هذا الجزء الخاص بتربية بنى اسرائيل قبل أن «نجمع» الوضع الخاص (باللغة) التى استعملوها، فهى واسطة التربية والتعليم الأساسية، وقد تنقلوا بين أوطان عدة، وتقلبت عليهم الأزمنة والعود مما لابد أن يكون له أثره فى لغة التعليم.

كان إبراهيم الجد الأول لليهود يتكلم باللغة التى كان يتكلم بها الكلدانيون حين كان يعيش فى إحدى مدنهم، وكانت لغة الكلدانيين هى اللغة (الأكادية)، فلما هاجر إلى (حاران) إحدى مدن الآراميين التى كانت تقع بين النهرين شمال شرقى دمشق، أصبحت لغته هى اللغة الآرامية، ولما انتقل إلى كنعان، كان أهلها يتكلمون العبرية، فتكلم بها، وكانت اللغات الأكادية والآرامية والعبرية كلها من اللغات السامية التى استعملتها الشعوب والقبائل التى ورد فى التوراة أنها انحدرت من نسل سام بن نوح(٥٠).

وقد ظل اليهود منذ نزوح إبراهيم إلى أرض كنعان يتكلمون باللغة العبرية، وقد ظلوا يتكلمون بها طوال إقامتهم بمصر، وإن كانوا ولاشك تعلموا فى هذه الفترة اللغة المصرية القديمة أيضا وتعاملوا بها مع المصريين. ولعلهم تأثروا بكثير من تعبيراتها فى لغتهم الأصلية، حتى إذا خرجوا من مصر كانت العبرية هى السائدة، وبها كتب موسى أسفاره الخمسة، ثم ظل اليهود يتكلمون بالعبرية ويكتبون بها طوال عهد القضاة، ثم طوال عهد الملوك، إلى أن أغار عليهم الآشوريون

والبابليون وأجلوهم عن بلادهم مشتتين إياهم فى مختلف الأرجاء.

وفى أثناء السبى، بدأ اليهود يتكلمون باللغة السائدة فى البلاد التى كانوا مسببين فيها، وهى الآرامية التى كانت سائدة فى ذلك الحين فى معظم البلاد الخاضعة للآشوريين والبابليين، ثم ظلت بعد ذلك هى اللغة الرسمية فى الامبراطورية الفارسية قرونا طويلة ومنها نشأت اللغة السريانية التى سادت فيما بعد فى سوريا وفيما بين النهرين، ولم يلبث اليهود أن نسوا أثناء السبى لغتهم العبريةتماما(٥١).

غير أنه إذا كانت أسفارهم الدينية مكتوبة بالعبرية، اعتبروها لغة مقدسة، واحتفظوا بها فى أداء شعائرهم الدينية، فكان كهنتهم يقرأون أثناء الصلاة فصولا من الأسفار بالعبرية، ثم يترجمونها شفويا إلى الآرامية لكى يفهم الشعب معناها، ثم لم يلبثوا أن ترجموا الأسفار إلى الآرامية ترجمة مكتوبة.

على أنه فى العصر اليونانى، حين سادت اللغة اليونانية فى معظم البلاد التى اشتملت عليها امبراطورية الاسكندر الأكبر كان اليهود القاطنون فى معظم أنحاء هذه البلاد يتكلم أهلها باللغة اليونانية ومن ثم اضطر اليهود الذين كان عدد كبير منهم يقيم فى مصر إلى ترجمة التوراة من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية فى عهد بطليموس فيلادلفوس فى القرن الثالث قبل الميلاد(٥٢).

التصوير القرآنى لأخلاق بنى اسرائيل

دون سائر الأمم والعقائد والطوائف والمذاهب حظى بنو اسرائيل بمساحة كبيرة فى كثير من آيات القرآن الكريم بحديث الله عز وجل مما يوجب أن نفرد لهذا التصوير القرآنى جزءاً من حديثنا عن التربية

في بني اسرائيل.

ولربمـا تحفظ البعض على هذا النهج، بيد أننا نؤكد هنا، أن الباحث إذ يؤمن بإلهية القرآن الكريم وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه قول الخالق الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فلابد وأن يكون التصوير القائم تصويرا قائما على حقائق ووقائع صادقة إلى أقصى مايمكن تصوره. صحيح أننا ممن يؤمنون بأن القصص القرآني لا يقصد به (التأريخ) وإنما التوجيه والإرشاد، إلا أننا لا نطلب من القصص القرآني عن بني اسرائيل أكثر من ذلك، فنحن هنا نبحث عن (الأخلاقيات) ، ومظاهر السلوك الدال على بناء الشخصية، ولا نبحث بالتحديد عن وقائع تاريخية تعين تاريخا بذاته أو مكانا بعينه.

ففي سورة البقرة، آية (٤٣) يخاطب الله عز وجل بني إسرائيل آمرا إياهم (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)، ويرتبط بهذا أيضا قوله لهم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) الآية (٤٤).

فلقد زاول بنو اسرائيل هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كثير من المناسبات التي عرضت لهم، كما فصل القرآن في مواضع كثيرة منه، وكانوا – في كثير من الأحوال – عامل فتنة وبلبلة في المجتمع، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف البشري.

وفي الآية الثانية يشير عز وجل إلى آفة رجال الدين – حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة – كما حدث بالنسبة لأحبار اليهود، أنهم يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه

ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق فى ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف فى حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان(٥٣).

وفى الآية (٦١) يقول عز وجل: (... وضربت عليهم الذلة والمسكة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

تشير هذه الآية إلى حقيقة تاريخية تؤكد أنه لم يشهد تاريخ أمة ماشهده تاريخ اسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم – وهى أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين – وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية، وكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل.

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة، كانوا دائما يدعون أنهم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله، وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك، وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة فى الآية التالية من سورة البقرة (٦٢): (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، فهو هنا يقرر قاعدة كلية من قواعده الحكيمة، التى تتخلل القصص القرآنى، أو تسبقه أو تتلوه، يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متي انتهت إلى اسلام النفس لله، والإيمان به إيمانا ينبثق منه العمل الصالح، وأن فضل الله ليس حجرا

محجورا على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، فى كل زمان وفى كل مكان وكل بحسب دينه الذى كان عليه، حتى تجئ الرسالة التالية بالدين الذى يجب أن يصير المؤمنون إليه[٥٤].

والآيات من (٤٢) حتى (٧٣) من سورة البقرة كلها حكايات عن بنى اسرائيل، تنتهى بهذه المقولة القرآنية التى يختتم بها سبحانه وتعالى تصويره لهم فى الآية (٧٤) (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون).

فالحجارة التى يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسي.. هى حجارة لهم بها سابق عهد، فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشر عينا، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا! ولكن قلوبهم لاتلين ولا تندى، ولا تنبض بخشيته ولا تقوى.. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم هذا التهديد: (وما الله بغافل عما تعملون)!

وقد طالب الله تعالى المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يأملوا فى اتباع اليهود طريق الحق مشيرا إلى أنهم قد دأبوا منذ القدم على الكذب والتحريف وتنكب طريق الحق، يقول فى الآية (٧٥) من سورة البقرة (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون)، وذلك أن موسى عليه السلام اختار بأمر الله سبعين رجلا من قومه لسماع الوحى ومشاهدة الحال التى يكلمه الله تعالى بها، وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذى لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى

حيث كان يناجى الله تعالى، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو وحى من الله تعالى، والتصديق بذلك لايتوقف على معرفة كيفيته وكنهه، فإن أكثر مانصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وايجاده. وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى قومهم حرّفوا كلام الله الذى حضروا وحيه وأذعنوا له بأن حرفوه عن وجهه بالتأويل – كما حققه ابن جرير الطبرى وغيره – وهذا التحريف ثابت عندهم منصوص فى التوراة والتاريخ الدينى الذى يسمى التاريخ المقدس[٥٥].

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر ومكابرة الحق، كانت عادة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار طبعا قوميا!

وسجل الله عز وجل فى آياته أنه قد أخذ ميثاقا على بنى اسرائيل بجملة من السلوكيات الأساسية لبناء المجتمع، فإذا بهم يعرضون بعد ذلك عنها باستثناء عدد قليل منهم، يقول فى الآية (٨٣) : (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون).

فواضح أن مظاهر السلوك الإيجابي التى طلبت منهم هى:[٥٦]

١ – أن يعبد الله وحده، ولا يشرك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا مادونهما.

٢ – بذل مايجب من الرعاية والعناية للوالدين، ذلك أنه إذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله،

ويكافئه بما يليق على حسب الحال فى المساعدة وما كانت به المساعدة، فكيف لايجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يساعدانه على كل شئ أيام كان يتعذر عليه كل شئ؟

٣ – قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة، أقوى من كل نعرة، وصلتها أمتن من كل صلة، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص.

٤ – ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس (اليتامى والمساكين).

٥ – والأمر بإحسان القول لسائر الناس فليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة فى الخطاب، فالحسن هو النافع فى الدين أو الدنيا.

٦ – ثم جاء الأمر بالعبادة مجملا ليعلم الإنسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها بحسب الطاقة، ولكن من العبادة مالا يهتدى إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع، إقامة الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، وإيتاء الزكاة لإصلاح شئون الجماعة.

وفى الآية (٨٧) (... أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون). وفى الآية (٨٨): (وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون)!

فهاهنا إشارة إلي مظهر آخر من مظاهر معاداة الحق والتمادى فى الاستكبار إلى الدرجة التى لم تقف بهم عند حد التكذيب لما جاء به

الأنبياء بعد موسى وإنما وصل بهم الأمر إلى حد قتل كثير من الأنبياء، وهم يحتجون بأن قلوبهم (غلف)، أى أنهم لم يكونوا يعقلون قول الرسول ولا ينفذ إلى قلوبهم مفهوم دعوته.

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال: (بل لعنهم الله بكفرهم)، أى أن قلوبهم ليست غلفا لاتفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالي من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لأهوائهم، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سببا فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين، هذا هو معنى اللعن، وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات، وأن الله لم يظلمهم بهذا، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر، والعصيان الذى يجر إلى التمادى فى العصيان، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان، ولما ذكر اللعن معللا بالكفر الذى هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة فى أنفسهم، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم استدرك فقال (فقليلا مايؤمنون)، وإنما العلة فى الايمان باعتبار مايؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين فى الايمان وتحكيمه فى الفكر والوجدان(٥٧).

— وفى سورة الإسراء الآية (٢)، نجده سبحانه وتعالى يقول: (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا). فالكتاب المشار إليه هنا هو التوراة التى وظيفتها الأساسية هدى بنى اسرائيل حتى لايعبدوا أحدا غير الخالق، وهذا التذكير المتتالى فى آيات متعددة، إنما ينبئ بما درج عليه هؤلاء من التنكر

لما هدى إليه واستمرائهم المعصية والجحود، وهم إذا كانوا هكذا مع الله العلى القدير، الخالق الجبار، ومع أنبيائهم، فكيف يكونون مع سائر خلق الله؟!

ـــ وفى الآيات من ٤ – ٨ من نفس السورة يقول عز وجل: (وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا، ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا).

يفسر ابن كثير[٥٨]. هذه الآيات بأن الله تعالى قضى إلى بنى اسرائيل فى الكتاب الذى أنزله إليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا، أى يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس.

وقوله (فإذا جاء وعد أولاهما) أى أولى الافسادتين سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد أى قوة وعدة وسلطنة شديدة، تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أى بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لايخافون أحدا، وكان وعدا مفعولا.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ والآراء التى سيقت فى هذا السبيل إنما هى (تخمينات) وليس مطلوبا منا (البت) فيها لترجيح أيها أقرب إلى الحق ذلك أننا كما سبق أن أشرنا، فإن الهدف من القصص القرآنى ليس

مجرد السرد التاريخى الذى يلتزم بتحديد الزمان والمكان وإنما هو نتائج ودلالات وعظات، وهذا هو الذى يهم المؤرخ التربوى بالدرجة الأولى.

ومن هنا فإننا نفهم من هذه الآيات ان الأمة التي لاتستقيم فى أفعالها وسلوكها الفردى والجمعى، مهما علت وذاعت شهرة قوتها وعنفوانها، فان الله - وفقا لسننه الاجتماعية - لابد أن يسلط عليها من يقهرها ويسومها سوء العذاب.

فإذا ما استطاعت هذه الأمة أن تنهض من كبوتها وتعود سيرتها الأولى من القوة والعزة، فمن المفروض أن تعى نتائج ماحدث لها فى المرة السابقة فتتلاشاه، لكن بنى اسرائيل لم يعوا ماسبق ولم يعدلوا من مسارهم السلوكى فعاودوا الإفساد فى الأرض، فكان حقا أن يعيد الله سبحانه وتعالى الدرس لهم مرة أخرى فيسلط عليهم من يقهرهم مرة ثانية، ثم يلوح لهم بأن هذه السنة التاريخية سوف تظل عاملة فى مسار الوقائع والأحداث (وان عدتم عدنا)!

هوامش الفصل الخامس

(١) غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبى، ١٩٧٠، ص١٥.

(٢) جمال حمدان: اليهود، أنثروبولوجيا، سلسلة المكتبة الثقافية (١٦٩). القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، ص٨.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٨ - ٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٩.

(٥) كامل سعفان: اليهود، تاريخ وعقيدة، القاهرة، دار الفكر العربى، دار الاعتصام، ١٩٨٨، ص ٩.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٧) المرجع السابق، ص ١٠.

(٨) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، القاهرة، مكتبة الخانجى، د.ت، ص ٢٩.

(٩) المرجع السابق ص ٩٧ .

(١٠) المرجع السابق، ص ١٠١.

(١١) محمد العزب موسى: موسى.. مصريا، المكتبة الثقافية، (٢٢٧)، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٩، ص ١٩.

(١٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

(١٣) زكى شنودة، المجتمع اليهودى، ص ٤١٦.

(١٤) جمال حمدان، اليهود وانثروبولوجيا، ص ١١.

(١٥) ثروت أنيس العيوطى:نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين (الجماعات البدائية وبنو اسرائيل)، القاهرة، دار الكاتب العربى، د.ت ص ١٣١.

(١٦) المرجع السابق، ص ١٣٢.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(١٨) كامل سعفان، اليهود: تاريخ وعقيدة، ص ١٨.

(١٩) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢٠) جمال حمدان، ص ١٦.

(٢١) ثروت أنيس العيوطي، ص ٢٧٤.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٢٣) ابراهيم رزقانةوآخرون، حضارةمصر والشرق القديم،ص٣٥٦.

(٢٤) ديورانت: قصة الحضارة، م١، جـ٢، ص ٣٥٦.

(٢٥) قصة الحضارة، م١، جـ٢، ص ٣٥٦.

(٢٦) موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٥٦.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(٢٨) ابراهيم رزقانة وآخرون، ص ٣٧١.

(٢٩) زكي شنودة: المجتمع اليهودى، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(٣٠) لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٧٤.

(٣١) قصة الحضارة، م١، جـ٢، ص ٣٨٥.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٣٨٦.

(٣٣) لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٨٠.

(٣٤) قصة الحضارة، م١، جـ٢، ص ٣٩٠.

(٣٥) زكي شنوده: المجتمع اليهودى، ص ٥٠١.

(٣٦) المرجع السابق،صفحات متفرقة، ص ص ٥٠٤ – ٥٠٩.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٥١٢.

(٣٨) هدى عبد السميع حجازى : التربية عند العبرانيين قبل التهجير الى بابل وبعد العودة منها، مجلة دراسات تربوية،

م٧، جـ٤١، ١٩٩٢، ص ١٥٩.
(٣٩) عبدالله عبدالدايم، ص ٢٩.
(٤٠) هدى عبدالسميع، ص ١٦٠.
(٤١) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٤٢) أحمد فهمى القطان، ص ١٢٥.
(٤٣) المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤٤) المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٤٥) المرجع السابق، ص ١٣٦.
(٤٦) هدى عبدالسميع، ص ١٦٩.
(٤٧) المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٤٨) أحمد فهمى القطان، ص ١٣٧.
(٤٩) هدى عبدالسميع، ص ١٧٣.
(٥٠) زكى شنودة، ص ٥٢٥.
(٥١) المرجع السابق، ص ٥٢٦.
(٥٢) المرجع السابق، ص ٥٢٧.
(٥٣) سيد قطب: فى ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، جـ١، ص٦٨.
(٥٤) المرجع السابق، ص ٧٥.
(٥٥) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، جـ١، ص ٢٩٤.
(٥٦) المرجع السابق، ص ٣٠٣.
(٥٧) المرجع السابق. ص ٣١٣.
(٥٨) أبو الفداء اسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، جـ٣، ص٢٦.